سُبُل

مجلة دورية تصدر عن مؤسسة رواق

عدد خاص

ملف العدد

القرضاوي الفقيه المُشتَبِك

العدد الخامس عشر - نوفمبر 2022

المحتوى

4 افتتاحية العدد

6 الإسلام والديمقراطية: الفقه الحركي عند القرضاوي
أسامة الأعظمي

13 المعالم العشرة لمدرسة القرضاوي العلمية
إسلام هلال

22 شاعر حنون: القرضاوي الذي لا تعرفه!
يوسف الدموكي

32 معالم المنهجية التربوية عند القرضاوي
حسين رضا

39 الإسلام منهج حياة: الفكر السياسي عند القرضاوي
إسلام زعبل

48 مراجعة كتاب: القرضاوي فقيه الصحوة الإسلامية للدكتور معتز الخطيب
عبد الرحمن أحمد

54 مراجعة كتاب: أولويات الحركة الإسلامية للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي
أحمد أمين

كتاب العدد

رئيس التحرير
محمد عباس

أحمد أمين

باحث في العلوم السياسية

إسلام هلال

محام وباحث دكتوراه متخصص في الشريعة والقانون، مهتم بقضايا تقنين أحكام الشريعة الاسلامية وآثاره الاجتماعية والسياسية

أسامة الأعظمي

محاضر في الدراسات الإسلامية المعاصرة بجامعة أكسفورد
دكتوراه في دراسات الشرق الأدنى من جامعة برينستون
حاصل على العالمية من معهد السلام في لندن
متخصص في الفكر السياسي الإسلامي

حسين رضا

باحث في مجال الدراسات القرآنية

عبد الرحمن أحمد

باحث في العلوم السياسية

إسلام زعبل

صحفي وباحث سياسي مصري
يهتم بمجال الجيوبوليتيك، والدراسات الأمنية، ونظريات العلاقات الدولية

يوسف الدموكي

كاتب وصحفي مصري
صدر له ثلاثة أعمال أدبية
تخرج في قسم التلفزيون والسينما بكلية الإعلام من جامعة مرمرة

يوسف القرضاوي.. الفقيه المُشتَبِك

رحل الشيخ يوسف القرضاوي في السادس والعشرين من شهر سبتمبر الماضي، عن عمر قارب المائة عام من العلم والسعي الحثيث في أرجاء المعمورة.

والشيخ القرضاوي شخصية مركزية في الفكر العربي الإسلامي المعاصر ولا شك، فإضافاته العلمية، وفتاواه المعاصرة، كما مداخلاته السياسية، كانت ولا شك ذات ثقل في المشهد الإسلامي العام، حتى أن الرجل لُقّب من قبل بعض المختصين الغربيين في الدراسات الإسلامية بالمفتي العالمي، لما كان له من أثر بالغ في الوعي الإسلامي في العالم كله، لكن القرضاوي الذي حاول أن يجمع "العاملين للإسلام" طول حياته، توفي في مشهد سياسي جعل مجرد الترحم عليه مسألة سياسية محظورة، فالرجل الذي كان يخطب وده أهل الفكر من كل التوجهات، صار محظورًا سياسيا، بل وخصمًا يُنال منه، رغم ذلك، اكتظ الفضاء الصحفي والإلكتروني بالحديث عن الشيخ ومناقبه، وهو الذي ألفت فيه المؤلفات، وسار على نهجه جمع من طلابه وصحبه.

من سمات الشيخ التي جعلت له هذا الثقل في العالم أنه لم يكن فقيهًا متخصصًا فحسب، فهو يفتي للناس في شؤون حياتهم، ويخطب في الناس بالشعر والأدب، ويعلق على الأحداث الجارية تعليق الفاعل المشتبك، ويقدم للناس نهجًا في التربية والتعليم، كل تلك الأوجه سمحت للقرضاوي أن يصل إلى مساحات واسعة من شرائح العالم الإسلامي.

ولذلك؛ تقدم مجلتنا في عددها الخامس عشر قراءات لجزء من إرث الشيخ في جوانبه المتعددة، **حيث يعرض أسامة الأعظمي لمحات من الفقه الحركي للشيخ**، مركزا على أفكاره حول التوفيق بين الإسلام والديموقراطية، وتقديمه قيمة الحرية على ما سواها من القيم، واعتبارها مفتاح الوصول لتحقيق الديموقراطية الإسلامية.

فيما يلخص إسلام هلال معالم المدرسة العلمية للقرضاوي في عشرة نقاط، لعل أبرزها اهتمامه ببناء المؤسسات، واشتباكه مع قضايا الواقع، قبل أن يطرح سؤالاً حول المستقبل الذي ينتظر إرث الشيخ في العلم والحركة.

ويأخذنا يوسف الدموكي في جولة نتعرف خلالها على الشاعر يوسف القرضاوي، حيث يقدم صورة لا يعرفها الكثيرون عن الشيخ، ويكشف جزءً من الصراع بين الفقيه والشاعر.

ويعرفنا حسين رضا على معالم المنهجية التربوية عند القرضاوي، عبر تقديمه صورا مختلفة للصبر والصمود في حياته، فضلا عن صفة الربانية التي مثلت وقوده في سعيه الدؤوب في سبيل العلم والعمل والحركة والدعوة على مدار حياته.

فيما يتطرق إسلام زعبل لموضوع الفكر السياسي عند القرضاوي، والذي ينطلق من فكرة شمولية الإسلام، واعتبار السياسة جزء لا يتجزء منه، كما يعرض أفكار الشيخ حول قضايا عديدة، لعل أبرزها مفهوم الدولة في الإسلام، وموضوع الأحزاب السياسية، ومشاركة المرأة في العمل السياسي.

ونختم العدد بمراجعة لكتابين أحدهما عن القرضاوي، والآخر كتبه الشيخ بيده، **حيث يعرض عبد الرحمن أحمد كتاب "القرضاوي فقيه الصحوة الإسلامية" للدكتور معتز الخطيب**، مستعرضا عددا من سمات الخارطة الفكرية لدى الشيخ والتي جعلته فقيه عصره الأول دون شك، فيما يستعرض أحمد أمين كتاب "أولويات الحركة الإسلامية" للشيخ يوسف القرضاوي، والذي حاول من خلاله إرشاد التيارات الإسلامية إلى وجهتها الصحيحة.

اقرأ وشاركنا أفكارك

subulmagazine.com

الإسلام والديمقراطية: الفقه الحركي عند القرضاوي

الإسلام والديمقراطية: الفقه الحركي عند القرضاوي

«كُتب هذا المقال بالإنجليزية وتُرجم بإشراف هيئة التحرير.»

أسامة الأعظمي

محاضر في الدراسات الإسلامية المعاصرة بجامعة أكسفورد
دكتوراه في دراسات الشرق الأدنى من جامعة برينستون
حاصل على العالمية من معهد السلام في لندن
متخصص في الفكر السياسي الإسلامي

مع رحيل الشيخ يوسف القرضاوي رحمه الله عن عالمَنا، فقدنا شخصية عزَّ أن تجد لها مثيلاً في نطاق الإسلام المعاصر، حيث جمع الشيخ بين المعرفة الغزيرة للعالِم الفذّ والروح الوثّابة للناشط السياسي الدؤوب، وعلى مدى العقود الأخيرة كان الشيخ أكثر نشطاء الإسلام تبحُّرا وثراء في العلم، وأكثر علماء الإسلام حركية ودأبًا، لذلك كان من المنطقي أن نولي هذا الاهتمام الخاص لما يمكن أن نصفه بـ "الفقه الحركي في الإسلام" الذي كان القرضاوي من أبرز رواده.

وأنا هنا أستخدم كلمة "الفقه" بمعناها اللغوي الأصيل وهو "الفهم العميق" أو "الفطنة"، حيث لا ينبغي بالضرورة فهمه في إطار الارتباط بالأحكام الفقهية، على الرغم من أنه قد يكون هناك بعض التداخل، لأن احتياجات الحركة الإسلامية المعاصرة قد تستدعى إنشاء اجتهادات جديدة في مجال الفقه الإسلامي وأحكام الشريعة، فما هي إذن مساهمة الشيخ القرضاوي في الفقه الحركي؟ وعلى الرغم من أن هذا السؤال قد يتطلب دراسة خاصة به لسبر أغواره، إلا أنني أريد أن أغتنم الفرصة هنا لمحاولة استكشاف مجال واحد محدد أسهم فيه الشيخ، حتى لو لم يكن متفردًا في هذا المنحى بين معاصريه، وهو تقديم تصور إسلامي عن الديمقراطية.

subulmagazine.com

محاولة التوفيق بين الإسلام والديموقراطية

حاول الشيخ القرضاوي تقديم تأصيل شرعي لمفهوم الديمقراطية في فتوى شهيرة، تم نشرها قبل حوالي ثلاثين عامًا [1]، وقد اعتمد في ذلك على القرآن والسنة، ليؤكد حينها أن استخدام الديمقراطية كوسيلة لتنظيم المجتمع الإسلامي لا يتناقض مع جوهر الإسلام أو الشريعة، شريطة أن يتم فهمها بالشكل الصحيح، ومن أجل إيضاح هذا الموقف، أضاف الشيخ شرطًا هامًا لذلك، وهو أنه: كقاعدة عامة، لا يمكن أن يُسمح للديمقراطية في المجتمع الإسلامي بتمرير قرار أو سياسة أو قانون يخالف الشريعة، إذ لا يمكن للتصويت الشعبي أن يحلِّل حراماً، أو يحرِّم حلالاً أجمعت عليه الأمة، على حد قول الشيخ.

ولكن بعض النقاد، وخاصة في الغرب، احتجوا بأن هذا التناول يُعد بمثابة استهزاء بالديمقراطية، حيث تساءلوا عن جدوى الديمقراطية إذا لم تكن هناك حرية في اختيار عدم التقيد بضوابط الشريعة؟ في الحقيقة، ما لم يدركه هؤلاء النقاد هو أنه حتى الديمقراطية في الغرب تخضع لقيود، وسواء أسميناها ديمقراطية "ليبرالية" أو نسبناها لبلد معين، مثل أن نقول الديمقراطية "الأمريكية"، فهناك دائماً قيود مفاهيمية أو وطنية أو دستورية تخضع لها الديمقراطية في الغرب، وللدلالة على ذلك، ربما تكون الحالة الأكثر وضوحًا في الغرب في هذا الصدد، هي التأكيد على أنه لا يمكن أن تُترك الديمقراطية دون قيود، في حالات معينة، مثل اختيار الأغلبية في البلاد اضطهاد أقلية ما أو إبادتها، على غرار ما حدث في ألمانيا النازية في الأربعينيات

1 HTTPS://WWW.ACADEMIA.EDU/38175408/YUSUF_AL_QARADAWI_ON_DEMOCRACY

علمًا بأن الديمقراطية بالأساس لا تنطوي على أي قيود من هذا القبيل، حيث تُعتبر هذه القيود، على الرغم من أهميتها البالغة، دخيلة على مفهوم الديمقراطية، الذي يؤكد ببساطة أن للأغلبية الحق في أن تفرض رأيها في إطار عملية جماعية لصنع القرار، كما أن النازيين، بهذا المفهوم، لم ينتهكوا الديمقراطية عندما شرعوا في إبادة الشعب اليهودي.

لقد كانت الديمقراطية الليبرالية في الغرب هي التي وضعت قيودًا أخلاقية معينة تحظر بشكل عام الانزلاق إلى اضطهاد الأقليات في الدول الديمقراطية، وبطبيعة الحال لم تكن مثل هذه القيود تُطبق على المستوى العالمي، حيث وثّق العلماء على نطاق واسع أن القتل الممنهج للملايين على يد القوى الاستعمارية كان مدفوعًا في كثير من الأحيان بأجندة ليبرالية، مع تبرير ذلك بأنه من باب الضرورات التي تستدعي قيام الأوروبيين الليبراليين بفرض "التحضُّر" على تلك الشعوب البربرية خارج نطاق أوروبا [2]، بل يمكن القول إن الحروب الأخيرة التي شنَّها الغرب في الشرق الأوسط -مثل الحرب على العراق- هي في الحقيقة النسخة الحديثة من "مهام فرْض التحضُّر" على هذه الشعوب والتي تضطلع بها الديمقراطيات الليبرالية، ومن الواضح من هذه الأمثلة أن محاولات الليبرالية لتقييد مثل تلك الدوافع تخضع هي نفسها لقيود وعراقيل صارمة، وبناء على ما تقدم، فإن علينا إدراك أن الديمقراطية ليست تلك الفضيلة غير المشروطة، وهي الحقيقة التي اعترف بها القرضاوي دون مجاملة حينما وصفها بأنها "آلية صحيحة في الجملة، وإن لم تَخْل من عيوب" [3].

دول علمانية وقيم مقدسة

أما المثال الثاني الذي يمكن طرحه هنا فيأتي من دولة ديمقراطية ذات دستور، في الولايات المتحدة، على سبيل المثال، لا تستطيع أغلبية ديمقراطية بسيطة أساسًا أن تتجاوز حق أو التزام منصوص عليه في الدستور، وهذا هو أحد الأسباب في صعوبة جعل القوانين الأمريكية المتعلقة بحق حيازة الأسلحة تتوافق مع مثيلاتها في العالم المتحضّر، لذلك؛ سواء كان الأمر يعود إلى "الليبرالية" أو إلى "دستور" ما لدولة معينة، فإن الديمقراطية في الغرب عمومًا مقيَّدة بشدة من بعض "القيم المقدسة" أو "النصوص المقدسة"، ولكن لا يمكن وصف تلك القيم أو النصوص في هذه المجتمعات، في العادة، بأنها "مقدسة"؛ فهي ترى أنها مجتمعات علمانية، ولذلك فهي تنظر للدين على أنه "رجعية"، خاصة عندما يتدخل في شؤون السياسة.

[2] HTTPS://PRESS.PRINCETON.EDU/BOOKS/PAPERBACK/9780691127910/A-TURN-TO-EMPIRE
[3] HTTPS://WWW.AL-QARADAWI.NET/NODE/3320

ومن المفارقات في هذا الأمر؛ أن هذه المجتمعات الغربية غالبا ما تكون غير مدركة أنها تتصرف -هي نفسها- بنفس الشكل تقريبا الذي تتصرف به تلك المجتمعات الدينية التي يحتقرونها، وذلك يرجع إلى أن المجتمعات العلمانية هي نفسها في الحقيقة مقيدة ببعض "القيم المقدسة" التي تعتبرها غير قابلة للتجاوز، وفي المجتمعات الليبرالية أيضا، هناك قيم مثل الحرية والمساواة والفردية وحرية التعبير، وما شابهها، والتي غالبا ما تكون كذلك مقيدة "بنصوص مقدسة"، مثل الوثائق الدستورية والسوابق القانونية، وما إلى ذلك، نعم؛ يمكن وصف هذه القيم بأنها "من وضع الإنسان"، لكن هذه الحقيقة، في غالب الأمر، لا تقلل من حقيقة أنها غير قابلة للتجاوز في إطار النظام القانوني للدولة العلمانية، كما يتضح ذلك من قضية الحق في حيازة السلاح، الذي ينص عليه الدستور الأمريكي.

وهذا أحد تلك الأسباب التي تجعل انتقاد الشيخ القرضاوي في تقييد الديمقراطية في العالم الإسلامي بالاستناد على القيم والنصوص المقدسة، دليلاً على المعايير المزدوجة لدى هؤلاء، ويمكننا القول: إن هذا الأمر لا يرتكز أبدًا على مبررات منطقية، ولكنه قائم في الأساس على رغبة العلمانيين في تجاوز القيم الإسلامية باسم القيم الليبرالية أو غيرها من القيم العلمانية، وهو ما يُعتبر ضربًا من ضروب الأنماط الاستعمارية القديمة المستمرة حتى اليوم.

حاول القرضاوي تقديم تأصيل شرعي لمفهوم الديمقراطية في فتوى شهيرة، تم نشرها قبل حوالي ثلاثين عامًا، وقد اعتمد في ذلك على القرآن والسنة، ليؤكد حينها أن استخدام الديمقراطية كوسيلة لتنظيم المجتمع الإسلامي لا يتناقض مع جوهر الإسلام أو الشريعة، شريطة أن يتم فهمها بالشكل الصحيح.

الحرية مفتاح الوصول لديموقراطية إسلامية

لقد كان تنظير القرضاوي في مجال الديمقراطية لا يزال في بداياته المبكرة، ولذلك فإنه يمكن القول بأن انتقادات بعض العلماء الغربيين لهذا الأمر تبدو في غير محلها، لقد تطورت النظرية الديمقراطية بشكل منهجي في الغرب في مجتمعات كانت تتوفر فيها الحرية بما يكفي لممارسة شكل ما من أشكال تلك الديمقراطية، وقد وضع أبرز منظري

روبرت دال عالم سياسة، وبروفيسور، وعالم اجتماع، من الولايات المتحدة

الديمقراطية المعاصرين أمثال: روبرت دال، و برنارد كريك، و إيان شابيرو، على سبيل المثال، نظرياتهم في مجتمعات كان يُمارَس فيها بالفعل شكلا من أشكال الديمقراطية، كما ساعدهم أيضا في ذلك عدم إقامتهم في دول يمكن أن تقيد قدرتهم على انتقاد حكوماتهم أو حتى حكومات الدول المجاورة.

وأخيرا؛ فقد عمل هؤلاء العلماء في مؤسسات علمية تحترم مرجعيتهم وتدرك أهمية ما يسهمون به من أجل مجتمعاتهم، كما أن نخب مجتمعاتهم كانت تدرك بالفعل أن أفكار هؤلاء العلماء شكلّت الأسس الفكرية التي تم تنظيم مجتمعاتهم على أساسها، إن كل هذه الشروط ضرورية لكي يكون بالإمكان تطوير نظرية ناضجة للديمقراطية، أما في حالة القرضاوي، فلم يتحقق إلا القليل من تلك المتطلبات الواجب توفرها بالضرورة، وعلى الرغم من ذلك؛ فإن إنجازات الشيخ من حيث الأفكار التي كان قادرا على تطويرها وتوريثها للجيل القادم من العلماء والناشطين، لم تخلُ أبدا من الأهمية.

وفي نفس الوقت؛ لا تُشكّل الجهود التي بذلها القرضاوي سوى البدايات، وليست بأي حال نتائج نهائية لاجتهاداته، وستكون المرحلة التالية الضرورية هي تحويل الشرق الأوسط إلى دول ديمقراطية تستطيع -من خلال الممارسة- أن تشرع في التعبير عن الشكل الذي يجب أن تكون عليه الديمقراطية الإسلامية، لقد حاول القرضاوي المساهمة في مثل هذا التحول قبيل نهاية حياته من خلال دعمه للثورات العربية، لكن جهوده في هذا الصدد لم تُكلل بالنجاح في نهاية الأمر.

لذلك؛ يجب أن تكون مساهماته في المجال السياسي من أجل الجيل القادم حافزا لنا لإدراك أنه لا يزال هناك الكثير من العمل الذي يتعين علينا القيام به، إن جمع الشيخ ما بين طموح المُصلِح السياسي وآمال المُنظِّر السياسي، في الوقت الذي يكون فيه هو نفسه عالما مجتهدا يحظى باحترام كبير بين الناس، هو بمثابة تذكير لنا بمجموعة المواهب والخبرات اللازمة لتهيئة الظروف من أجل التغيير.

وسواء تحقق هذا التغيير في حياة المرء أم لم يتحقق، فإن رحيل القرضاوي يذكّرنا بأن الهدف في نهاية الأمر لا يتمثل فقط في نجاح جهودنا، ولكن في بذل قصارى جهدنا لإحداث التغيير الذي نريد رؤيته في هذا العالم، حيث قال نبينا -صلى الله عليه وسلم-: "الأعمال بالنيات". أسأل الله تعالى أن يجزي الشيخ القرضاوي خيرا على نيته في السعي لتحقيق التغيير الديمقراطي في المنطقة، وأن نأخذ الدروس من أخطائه (المأجور عليها أجرا واحدا) في سياق الجهود المنوط بنا القيام بها في المَرَّة القادمة التي تلوح فيها مثل هذه الفرصة للإصلاح والتغيير في مجتمعاتنا.

> **"إن جمع الشيخ ما بين طموحِ المصلِح وآمال المنظر السياسي، في الوقت الذي يكون فيه هو نفسه عالما مجتهدا يحظى باحترام كبير بين الناس، هو بمثابة تذكير لنا بمجموعة المواهب والخبرات اللازمة لتهيئة الظروف من أجل التغيير."**

المعالم العشرة
لمدرسة القرضاوي العلمية

المعالم العشرة لمدرسة القرضاوي العلمية

إسلام هلال

محام وباحث دكتوراه متخصص في الشريعة والقانون، مهتم بقضايا تقنين أحكام الشريعة الاسلامية وآثاره الاجتماعية والسياسية

فزعت الأمة يوم 30 صفر 1444 هجرية الموافق 26 سبتمبر/أيلول 2022 على خبر وفاة الإمام يوسف القرضاوي، وهو الخبر الذي دفع مختلف مكونات الأمة العلمية والحركية والسياسية للتعزية فيه، وهو أمر يندر أن يحدث في أمة تنازعتها التقسيمات السياسية، والحدود الجغرافية، والتبعية للمدارس والمؤسسات والجماعات، وهو ما جعل الإجماع على شخصية علمية أو قيادة دينية أمرًا غاية في الصعوبة.

القرضاوي: مدرسة علمية متكاملة

يعتبر القرضاوي نموذجًا فريدًا في التاريخ المعاصر للأمة الإسلامية، حيث تميز بتأسيس مدرسة علمية متكاملة، وانطلق باجتهادات فقهية واكبت الاحتياجات المعاصرة، وامتد تأثيره إلى عموم الأمة الإسلامية في مختلف البلاد والثقافات واللغات، وذلك عبر مؤلفات علمية رصينة رسخت لمذهبه في الاجتهاد والنظر الشرعي، وعبر مؤسسات امتد تأثيرها ليشمل كافة النطاقات الجغرافية في العالم المعاصر، وهو ما يجعل القرضاوي ظاهرة فريدة تستحق الدراسة من مختلف الجوانب العلمية والحركية والدعوية.

لقد عرف عن القرضاوي الجدية والدأب في البحث العلمي، حيث لا تخطئ عين القارئ المتخصص إدراك عمق الطرح العلمي في مؤلفاته، مع جزالة الصياغة وسعة الاطلاع، وهو ما يمكن أن نعزوه إلى البنية العلمية القوية التي ترسخت في مرحلة التأسيس بالأزهر الشريف، ودعمتها ساعات العمل المكثفة التي دأب على الحفاظ عليها غالب أيام عمره الذي قارب المائة عام بالتاريخ الهجري، وبذلك يصبح كم التأليف الغزير للقرضاوي منطقيًا، خاصة أنه لم يكن من العلماء الذين يستعينون بمحررين للكتابة عنهم، بل كان حريصًا على أن يكون إنتاجه نابعًا من فكره ومدونًا بقلمه، وهو ما يمكن إدراكه بقراءة مؤلفاته المتقدمة والمتأخرة حيث تحمل عباراته نفس الروح وذات الأسلوب الذي يجمع بين الرصانة العلمية والجزالة الأدبية والعبارة السلسة الرائقة.

إن ما قام به القرضاوي لا يمكن حصره في مجرد جهد علمي بقي حبيس الكتب وأسير الأروقة الأكاديمية، ولا في مجهود دعوي اعتمد التأثير في قطاع واسع من الناس، بل هو خليط متجانس من العلم والدعوة، وبناء علمي متكامل الأركان واضح المعالم شكل تيارًا مؤثرًا في الواقع الإسلامي المعاصر لا يمكن إغفاله ولا تجاهله، لذا فالوصف الأدق لما أسسه القرضاوي هو "المدرسة" حيث تتكامل المواد وينظمها منهج واضح يتتلمذ عليه الطلاب والقراء.

يهدف الكاتب من خلال هذا المقال الموجز إلى استعراض معالم المدرسة العلمية للقرضاوي، ومحاولة استشراف مستقبل هذه المدرسة بعد وفاة الإمام، في محاولة لتعزيز الاستفادة من إرث القرضاوي الذي يعتبر إرثًا للأمة كلها ينبغي الحفاظ عليه والاستفادة به في مجالات البحث العلمي والتطبيق العملي.

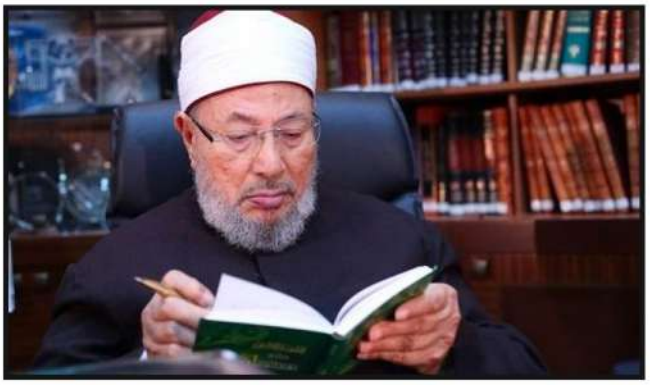

عشرة معالم لمدرسة القرضاوي

تعتبر المدرسة العلمية للإمام القرضاوي فريدة من نوعها بمعايير العصر الحالي، حيث قل أن تجتمع هذه المعالم كلها في عالم واحد في زمننا، ويمكن تحديد أبرز معالم مدرسة القرضاوي في عدة نقاط على سبيل البيان لا الاستقصاء والحصر.

البناء على التراث دون تجاوزه أو التوقف عنده:

وهو خليط ليس بالسهل أن يجمعه عالم دون أن يميل إلى التمسك الشديد بنصوص التراث، وهو ما يقود إلى إعادة اجترار الإنتاج العلمي للعلماء السابقين دون مواكبة لاحتياجات العصر ومستجداته؛ أو أن يميل إلى إغفال الجهود العلمية الضخمة التي ورثتها أجيال متعاقبة من علماء الأمة، وهو ما يجنح بصاحبه إلى الزلل الناتج عن عدم إحكام الصنعة العلمية الضرورية في البحث الشرعي.

إن الإنتاج العلمي للقرضاوي منطلق من أسس علمية راسخة، دعمتها النشأة الأزهرية التي تستقي العلم من كتب التراث، وتحترم ميراث الأمة من علمائها وتعتني به؛ هذه الأسس المتينة منحت القرضاوي ميزة غرس أفكاره واجتهاداته في تربة خصبة من جهود علماء الأمة في مختلف المجالات الشرعية وخصوصًا الفقه وأصوله، فأثمرت اجتهادات فقهية وآراء علمية اتسمت بمواكبة العصر والتحرر من الجمود والحَرفية في التعامل مع التراث، دونما إخلال بالأسس العلمية الثابتة في كل علم من علوم الشرع، وهو ما يمكن صياغته في جملة "اتخاذ التراث منطلقًا إلى آفاق الاجتهاد وليس محطة توقف".

الواقعية في الطرح العلمي:

تميزت المدرسة العلمية للقرضاوي بكونها لم تقتصر على الطرح الأكاديمي الجامد الذي يكرر ألفاظ السابقين ونظرياتهم كما هي دون ربط بالواقع، حيث يمكن اعتباره رائد مدرسة الفقه المعاصر، وذلك في تناوله للمسائل الفقهية التي تمس الواقع المعاصر، فعلى سبيل المثال نجد أنه على الرغم من وجود العديد من الكتب التي تناولت فقه الزكاة إلا إن كتابه في ذات الموضوع يعتبر مرجعًا يستفيد منه المبتدئ والمتقدم، ذلك؛ لأنه لم يقتصر على بيان المسائل الفقهية في قالبها المعتاد وألفاظها المعهودة فقط، ولكنه تجاوز ذلك ببيان أمثلة واقعية وتناول قضايا معاصرة في فقه الزكاة، وعلى ذلك جاءت مختلف كتبه الفقهية.

وتعتبر قضايا الاقتصاد الإسلامي أبرز مثال على ذلك، فاجتهاداته الفقهية تعتبر هي الأساس التي بنيت عليها البنوك الإسلامية انطلاقتها، كذلك تنظيره الفقهي للكثير من المعاملات المالية الضرورية يعتبر هو المرجع الأساسي في المعاملات المالية المعاصرة في المؤسسات المالية الإسلامية.

الاشتباك مع القضايا الحرجة:

من المعروف أن هناك مساحات لا يفضل العلماء ولوجها بالبحث أو التأليف إلا للضرورة، وذلك لما يترتب عليه من إشكاليات مع أنظمة الحكم أو جهات نافذة، ويزعم الكاتب أن هذا السبب هو

الـذي جعـل السياسـة الشـرعية مـن العلـوم التـي لـم يتصـدر لهـا كثيـر مـن العلمـاء قياسًـا ببقيـة أبـواب الفقـه كالطهـارة على سـبيل المثال.

وكذلـك نجـد أن كثيـرًا مـن القضايـا الحرجـة التـي تحتـاج إلـى فتـاوى شـرعية أو تأطيـر فكـري لا ينفـرد لهـا عـدد كافٍ مـن العلمـاء نظـرًا لتبعـات التصـدر في مثـل هـذه المسـائل، ولعـل اشـتباك القرضـاوي مـع قضايـا الأمـة الشـائكة على كافـة المسـتويات يعـد مـن أبـرز معالم مدرسته العلمية.

على صعيـد المسـلمين في الـدول غيـر المسـلمة تنـاول العديـد مـن القضايـا التـي تعتبـر شـائكة خاصـة تلـك المتعلقـة بالأحـوال الشـخصية، وعلى الصعيـد السياسـي كانـت فتـاواه في الجهـاد مـن أبـرز أسـباب منعـه مـن دخـول أوروبـا وبريطانيـا والولايـات المتحـدة، ولـو أنـه اقتصـر على تنـاول القضايـا المشـهورة وابتعـد عـن الشـائك منهـا لجنـب نفسـه الكثيـر مـن الهجـوم والضغـوط، ولكـن العلـم أمانـة، وهكـذا كانـت مدرسـته مشـتبكة دائمًـا مـع همـوم الأمـة واحتياجاتهـا أيًـا كان ثمـن هذا الاشتباك.

التحـرر مـن التبعيـة للأنظمـة والتنظيمات:

لقـد نشـأ القرضـاوي نشـأة أزهريـة كاملـة، وتـدرج في مراحـل التعليـم الأزهـري وظـل معتـزًا بانتمائـه للأزهـر الشـريف طـول عمـره، وهـو مـا يظهـر في التزامـه بارتـداء الـزي الأزهـري في غالـب المحافـل والملتقيـات، وفـوق هـذا فقـد حظـي بعضويـة أعلى المؤسسـات الأزهريـة مكانـة، فقـد كان عضـوًا بهيئـة كبـار العلمـاء، وعضـوا بمجمـع البحـوث الإسلاميـة، وهـي العضويـة التـي تخلـى عنهـا عقـب أحـداث عـام 2013، فهـو ابـن الأزهـر، وواحـد مـن كبـار علمائـه، إن لـم يكـن أبرزهـم وأكثرهم تأثيرًا.

> **إن الإنتاج العلمي للقرضاوي منطلق من أسس علمية راسخة، دعمتها النشأة الأزهرية التي تستقي العلم من كتب التراث، وتحترم ميراث الأمة من علمائها وتعتني به**

كذلـك هـو أحـد أبنـاء جماعـة الإخـوان المسـلمين، وهـو أمـر معـروف وتحـدث عنـه في مذكراتـه، ومـن المهـم هنـا توضيـح أن الفتـرة التـي انضـم فيهـا للإخـوان المسـلمين كانـت حركـة إسلاميـة عامـة تضـم نخبـة المجتمـع المصـري، وقـد تعـرض للسـجن عـدة مـرات بسـبب انتمائـه للإخـوان، ورغـم ابتعـاده عـن التنظيـم إلا إنـه ظـل محـل تقديـر نـادر مـن قـادة الإخـوان ومنتسـبيهم، وهـو مـا جعلهـم يعرضـون عليـه مـرارًا وتكـرارًا منصـب المرشـد العـام، والـذي اعتـذر عـن قبولـه بشكل قاطع.

انطلـق القرضـاوي إلـى دولـة قطـر بعـد التضييـق عليـه في مصـر، وكان مـن أعمـدة تأسـيس الدولـة على الصعيـد العلمـي، فهـو الـذي أسـس نـواة جامعـة قطـر بإنشـاء كليـة التربية

وهو الذي استقطب كبار العلماء للتدريس في جامعتها، وهو الذي أطلق نهضة علمية وتربوية كبيرة فيها، كما جعلها منطلقًا للعديد من الأعمال العلمية والدعوية العالمية، وهو وضع أفادت منه دولة قطر واستفاد منه القرضاوي باعتبارها منطلقًا ومظلة دعم متينة لأنشطته الرائدة في مختلف المجالات.

هذه المحددات الثلاث لم تجعل من الشيخ أسيرًا لمؤسسة الأزهر أو جماعة الإخوان أو دولة قطر، حيث اختار الحرية والتحرك وفقًا لمنطلقاته ومعتقداته واجتهاده، بغض النظر عن مدى موافقة رأيه لجهة ما أو مخالفتها.

ووفقًا لهذه الزاوية من النظر، نجد أن الإمام القرضاوي تجاوز في تأثيره المؤسسات الضخمة مثل الأزهر الشريف، وتجاوز الحركات والتنظيمات مثل الإخوان، وتجاوز كونه مصريًا أو قطريًا، فالقرضاوي كان إمامًا بحق على الصعيد العلمي والدعوي والحركي، ولم يكن تابعًا لشخص أو تنظيم أو مؤسسة، وهو ما أوضحه الكاتب في مقال آخر.

بناء المؤسسات وتشجيع العمل الجماعي:

تميز القرضاوي بأن جهوده لم تكن فردية، حيث حرص على تأسيس مختلف الهيئات والمؤسسات التي تحمل رسالة واضحة وتؤدي أدوارًا محددة، وعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أنه هو المؤسس والرئيس الأسبق للمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، وهي المؤسسة التي عنيت بالبحث الشرعي المتعلق بقضايا المسلمين في أوروبا، كما أنه المؤسس والرئيس لجمعية البلاغ المؤسسة لموقع إسلام أون لاين، ذلك الموقع الذي كان نقلة نوعية في تقريب الإسلام والثقافة الإسلامية لأجيال من الشباب في مطلع الألفية الثالثة، كما أنه المؤسس والرئيس الأول للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين،

تلك الهيئة العلمية المستقلة التي جمعت مختلف العلماء والدعاة تحت مظلة واحدة تهدف إلى جمع الجهود وتعزيز التواصل بين العلماء متجاوزة في ذلك الحدود الجغرافية والتقسيمات السياسية.

ومما تميز به القرضاوي أن هذه المؤسسات لم تكن باسمه الخاص، ولم يستمر في قيادتها ورئاستها طول الوقت، بل أنه يؤسس ويدعم ويجمع الجهود والموارد، حتى إذا قوي المشروع واستوى على سوقه فإنه يترك للقائمين عليه أن ينتخبوا منهم من يتحملون أمانة هذا المشروع، وهو مستوى عالٍ من التجرد وإنكار الذات والتركيز على الهدف الأكبر وهو خدمة الإسلام والمسلمين.

المراجعة المستمرة للاجتهاد:

لم يتصف القرضاوي يومًا بالتحجر الفكري أو التبرير لرأيه فقط لأجل الانتصار، ولكنه كان دائم المراجعة لآرائه وأفكاره، وكان يؤكد باستمرار على أن آراءه هي اجتهادات علمية قابلة للمراجعة، ولعل أبرز مثال على ذلك ما قام به اتحاد علماء المسلمين أثناء حياة الإمام القرضاوي بمراجعة فتواه القائلة بحرمة زيارة المسجد الأقصى لغير الفلسطينيين، وهو ما سبقه مراجعات دائمة من الإمام لمختلف القضايا التي أفتى بها أثناء حياته الطويلة المباركة التي امتلأت بالجهد الفقهي والفتاوى التي تتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال.

تحمل المسئولية عن قضايا الأمة:

من آفات الأمة اليوم؛ أننا نعتني بالقضايا المشهورة ولا نولي اهتماما بالقضايا التي لا تطفو على السطح، أضف إلى ذلك أن كثيرا من العلماء يشعرون أن مهمتهم علمية فقط دون غيرها من المهام، والبعض يعتقد أن دوره منحصر في البلد التي ولد فيها أو حط فيها رحاله، لكن القرضاوي تميز بتحمله المسئولية عن الأمة كلها، فهو الذي انطلق ليعرف

المسلمين بقضايا الأقليات التي لم تكن مشهورة وقت حديثه عنها، حيث نجد قضايا مسلمي تركستان الشرقية (الإيجور) وأراكان (بورما) ومسلمي تايلاند وغيرها من القضايا حاضرة في مقالاته وشعره ومحاضراته وذلك في وقت مبكر وسابق على غيره.

ولعل نظرته العامة للأمة ورحلاته المكثفة لمختلف دول العالم ساعدته في معرفة مختلف هذه القضايا، التي تحمل مسئولية التعريف بها والعمل لدعم المسلمين في تلك البلاد، وهو أمر تميزت به مدرسته التي لم تقتصر على العلم دون العمل، ولم تتخلف عن دور العلماء في نصر قضايا الأمة.

التنوع في مجالات التأليف وموضوعاته:

لقد ألف القرضاوي في مختلف أبواب العلم، وأعماله الكاملة ستصدر قريبًا في أكثر من مائة مجلد، وهو إنتاج يتميز بالجودة العلمية، التي يعتبر افتقادها أحد السمات المنتشرة في مؤلفات العصر الحديث، كما أنه لم يعتمد على باحثين يكتبون عنه كما هو حال عدد من المشايخ خاصة غزيري التأليف، بل كان يكتب بنفسه وينقح المسائل ويراجعها، والمطلع على كتبه يمكنه أن يدرك أن كل كلمة هي وليدة ذات القلم والفكر.

بناء تيار وليس تنظيم:

لم يكن القرضاوي مولعًا ببناء التنظيمات ودوائر الولاء، بل أسس تيارًا يكون فيه كل إنسان حرًا منطلقًا من فكره ورأيه، فيمكنه أن ينهل من علم القرضاوي وأن ينتسب إلى المؤسسات التي أسسها، ويمكنه أن يخالف رأيه طالما لم يخرج عن ثوابت الدين، وهو أمر تميز فيه عن التنظيمات الإسلامية السياسية التي قدست التنظيم أو التيارات السلفية والصوفية التي قدست الشيخ، ولعل مؤتمرات تلاميذ القرضاوي شاهدة على ذلك، حيث جمعت أطيافًا متنوعة ممن اختاروا الانتساب إلى مدرسة الشيخ، على مختلف تخصصاتهم ومشاربهم العلمية والحركية وتوجهاتهم واهتماماتهم.

ماذا بعد وفاة القرضاوي؟

يعتبر القرضاوي إمام العصر بامتياز، سواء على صعيد الإنتاج العلمي الغزير المتميز بالجدة والرصانة، أو على صعيد الحركة والدعوة والعمل، وهنا تبرز أسئلة المآلات: ماذا بعد وفاة القرضاوي؟ ما هو المستقبل الذي ينتظر إرث الشيخ في العلم والحركة؟

لقد اعتنى الإمام القرضاوي بأعماله العلمية فجمعها ونقحها، وعمل على مراجعتها وإصدار أعماله الكاملة التي أشرف على مراحل إعدادها بنفسه وتوفي عقب دفعها للطباعة، وهو من توفيق الله أن استبقاه إلى حين إتمام هذه المهمة، وقد شكلت جهود القرضاوي العلمية جانبًا كبيرًا من واقع الأمة المعاصر ولا يمكن تجاوزها بحال أو بآخر، خاصة أن الجمهور المستهدف من كتب الشيخ لم يقتصر على المتخصصين أو عموم القراء، بل تنوع ليشمل

كل أطياف الأمة، وهو ما يبشر بامتداد التأثير العلمي لمؤلفات الشيخ وفكره وبحثه الفقهي الذي يعتبر مدرسة فرضت نفسها في واقع الأمة رغم العوائق التي وضعت أمامها.

يعتقد الكاتب أن تبقى مؤلفات الإمام حاضرة في البحث العلمي باعتبارها مراجع معتبرة في البحوث والدراسات، كما يتوقع خروج العديد من البحوث والدراسات والرسائل الأكاديمية لتنضم إلى الكتابات التي تناولت آراء الشيخ واجتهاداته بالبحث والدراسة.

كما أن الإمام يعتبر علامة تاريخية واسما مضيئا في تاريخ الأمة، وهو ما سيدفع العديد من الباحثين والعلماء إلى تأكيد انتسابهم له لإضفاء شرعية أو اكتساب ثقل لأسمائهم وأعمالهم التي لا يتوقع أن ترتقي بسهولة إلى مستوى البحث العلمي الذي كان عليه الشيخ، وهو ما ينبغي أن يقابله المجتمع العلمي بالحذر الشديد حتى لا يتخذ أحد من صفة التلمذة على الشيخ ستارا يستر به ضعفه العلمي أو ينسب به إلى مدرسة الشيخ ما لا يليق بها.

والحق أن الشيخ كان كريمًا مع من كتب عنه، وكثيرا ما زكّي الشباب من الباحثين والعلماء، لكن هذا لا يعني وجود تلمذة علمية طويلة مستمرة تقتضي توريث العلم والمنهج والإجازة به، فانشغال الشيخ في غالب سنوات عمره بهموم الأمة وكثرة أسفاره من ناحية، وانكبابه على البحث والقراءة اليومية التي كان يقضي فيها ساعات طوال من ناحية أخرى، جعلت من الصعب أن يدعي أحد أنه الوريث الأول أو الأوحد لعلم القرضاوي، حيث ورث الإمام علمه للأمة كلها، وهو ما يلقي على عاتق تلاميذه ومحبيه أمانة نشر علمه وفكره والعمل على استبقاء جذوة الصحوة التي أطلقها القرضاوي مشتعلة في أرجاء الأمة.

وأخيرًا ما يتعلق بالمؤسسات التي أسسها الإمام، ينظر الكاتب إلى مستقبلها نظرة لا تتسم بالتفاؤل، فهناك العديد من المؤسسات خبا ضوؤها بعد أن ابتعد الشيخ عنها، مثل موقع إسلام أون لاين، وهناك مؤسسات لم ينجح القائمون عليها في استبقاء الروح التي بثها الشيخ فيها عند الانطلاق فواجهت العديد من الصعوبات، ومثل هذه المؤسسات يخشى عليها أن تصبح في المستقبل القريب أسماء دون مضامين.

لقد كان القرضاوي إمامًا بحق في العلم والفكر والحركة، ومصاب الأمة شديد في وفاته، فلقد كان حجة على العلماء في العلم والدعوة والحركة، أسأل الله أن يخلف الأمة في مصابها وأن يهيئ لها أمر رشد وصلاح.

شاعر حنون: القرضاوي الذي لا تعرفه!

يوسف الدموكي

كاتب وصحفي مصري
صدر له ثلاثة أعمال أدبية
تخرج في قسم التلفزيون والسينما بكلية الإعلام من جامعة مرمرة

شاعر حنون: القرضاوي الذي لا تعرفه!

رحل الشيخ يوسف القرضاوي، وبقي بعده -أو أبقى هو بعده- أكثر ما يُخلّد للناس في الناس ذكراهم؛ العلم، والشعر، أما العلم ففيه اتفقوا واختلفوا، وما زالوا يتفقون ويختلفون، على اختلاف المذاهب والطرق والعقول والمرجعيات، وفيه تحدث العلماء والفقهاء، والطلاب والمريدون، والجاهلون وأبواق الجاهلين، وأما الشعر، فعليه اتفق جميع هؤلاء، فلا أحد من المشركين أو المنافقين أو المؤمنين ينكر أن حسان بن ثابت كان شاعرًا بليغًا، ولا ينكر قاتل أهل الخنساء نفسه أنها كانت شاعرة مخضرمة، كما لا ينكر أصحاب الحياء والخجل أن امرؤ القيس كان شاعرًا، على جرأة لسانه، الشعر لا إنكار فيه لمحبٍّ أو مريد، أو خصم أو كاره، والإنصاف عزيز.

متلازمة الفقه والشعر

ارتبط الشعر في كثير من الأحيان بالفقه، ومن الفقهاء من نظم الشعر كأنه شاعر متفرغ لا يشغله في الدنيا غير أبياته، ومنهم من رأى انشغاله بالشعر يطغى على انشغاله بعلمه وعمله، فخشي، وتركه مجبرًا بحكم نفسه على نفسه، وليس في هذا أحد أصدق من الإمام الشافعي رحمه الله، حين قال:

وَلَولا الشِعرُ بِالعُلَماءِ يُزري
لَكُنتُ اليَومَ أَشعَرَ مِن لَبيدِ

وللشافعي نفسه ديوان يزخر بقصائد تجري الآن على ألسنة الناس مجرى الحكَم والأمثال، وهو الذي يقول في إحدى أشهر قصائده:

سافر تجد عوضًا عمن تفارقه
وانصب فإن لذيذ العيش في النصبِ

وهو صاحب الأبيات المعروفة:

تَموتُ الأُسدُ في الغاباتِ جوعاً
وَلَحمُ الضَأنِ تَأكُلُهُ الكِلابُ
وَعَبدُ قَد يَنامُ عَلى حَريرٍ
وَذو نَسَبٍ مَفارِشُهُ التُرابُ

وعلاقة الشعر بالدينَ علاقةَ وطيدة، ولو كانت معقدة، وفيها نرى حسان بن ثابت، شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونرى الرسول نفسه يستمع إلى أبيات كعب بن زهير "بانت سعادُ"، وقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في حديث صحيح متفق عليه رواه أبو هريرة رضي الله عنه: "أشعَرُ بيت قالته العربُ كلمةُ لَبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خَلا اللهَ باطلُ، وكاد أميَّةُ بنُ أبي الصَّلتِ أنْ يُسلِمَ" صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فكان الشعر والعلم متلازمين، صاحبين يخدم أحدهما صاحبه، لكن علاقتهما غالبًا تكون عصية على الاكتمال إلى النهاية، فيؤثران الفراق أحيانًا لتكتمل رسالة واحد منهما، ويظل الآخر ذكرى تغص الحلق وتقض المضاجع حتى آخر نفس في حياة صاحبه.

يروي الصحفي الموريتاني محمد المختار الخليل، عن لقاء جمعه بالقرضاوي، طلب فيه من الشيخ أن يلقي بعضًا من شعره، ومزح معه قائلا: أسمعنا من شعر الشعراء لا من شعر العلماء؛ فرد عليه القرضاوي ضاحكًا: إن للعلماء من الشعر ما للشعراء من العلم.

القرضاوي: صراع داخليٌّ مبكر

حين تسمع شعر القرضاوي، وجمعه بين اللفظ السهل والمعنى العميق، تتلذذ بانسيابية تدفق الأبيات إلى أذنيك، فيهبط منها ما يهبط إلى القلب، ويصعد منها ما يصعد إلى العقل، ويتسرب بعضها فيحرك الجوارح، لقلتَ والله لولا أن الذي شغل القرضاوي عن شعره كان علوم الدين، لرجوت أن لم يكن شغله في حياته عن الأوزان والقوافي والعَروض والقصائد شاغل، إلا صلاته وعملُ يأكل منه رزقًا حلالاً، ولا شيء آخر إلا ديوان بعد ديوان.

وفي ذلك يقول القرضاوي في قصيدته "أنا والشعر" وقد كان عمره حينها نحو 24 عامًا:

أريد له هجرًا فيغلبني حبي
وأنوي، ولكن لا يطاوعني قلبي
وكيف أطيق الصبر عنه وإنما
أرى الشعر للوجدان كالماء للعُشبِ
فكم شدّ من عزم وبصّر من عمىً
وأيقظ من نوم وذللَ من صعبِ

كان هذا الصراعُ قائمًا إذًا منذ ذلك الوقتَ البعيد، بين يوسف الشاعر، ويوسف الفقيه، بين البيت والفتوى، وبين القصيدة والحُكم، وبين أصحاب المعلقات.

نشأ القرضاوي في أسرة بسيطة رقيقة الحال، متوقد الذهن، ذكي العاطفة، التحق بالكتاب وهو ابن خمس سنوات، وحفظ القرآن قبل أن يتم عشر سنوات من عمره، وفي هذا أول علامات النبوغ، ولحفظ القرآن في حفظ اللسان وتقويم البيان ما يعجز ما عداه عن فعله، فيغذي الحصيلة اللغوية، ويغذي الصور البيانية، ويدرّب اللسان على الفصاحة، والعقل على التأمل، والقلب على الشعور.

وبعد دراسة القرضاوي لأصول الدين التحق بتخصص تدريس اللغة العربية، والتحق بمعهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، حتى حصل على الدبلوم العالي في شعبة اللغة والآداب.

وليست الدراسة ولا النشأة ولا الكُتاب ولا الأزهر ولا الريف وحدهم من يصنعون من الرجل أديبًا، وإنما الأحداث العظام، وطريقة تلقيه لها، فيأتي الشعر من الشعور، وتتنامى الموهبة من القدرة على التقاط الإشارات حول المتلقي، ومن التفاعل الوجداني العميق مع الأحداث في محيطه، فقد يكون الرجل غير متعلم، ولم يدرس بصرح الأزهر العظيم، ولم يتعلم العَروض في المعهد الثانوي، ويكون شاعرًا بليغًا على قدر لسانه، لكن صوره أفصح من شاعر يملك حصيلة تفوقه مليون مرة، لأن الصور لا تحتاج اللسان بقدر ما تحتاج إلى العين.

كان القرضاوي هو هذا الرجل الذي جمع حسن الفصاحة ورقة الإحساس معًا، وقد عايش الحرب العالمية الثانية، والاحتلال الإنجليزي لمصر، وثورة فلسطين في ثلاثينيات القرن الماضي، وحرب النكبة، ووقوع فلسطين في يد العصابات الصهيونية، واعتقل في أيام الملك فاروق عشرة أشهر، عام 1949، وكان حينها في الثالثة والعشرين من عمره، واعتقل ثلاث مرات بعدها في وقت لاحق، هذه الأحداث العظيمة كلها كانت في نحو عقد واحد من عمره، في الفترة التي يتكون فيها شخصه، وتستعد شخصيته، فخرج شعره معنيًّا بهموم الأمة حوله، متأثرًا بأساتذته من الأزهر ومن رواد الحركة الإسلامية.

حين تسمع شعر القرضاوي، وجمعه بين اللفظ السهل والمعنى العميق، تتلذذ بانسيابية تدفق الأبيات إلى أذنيك، فيهبط منها ما يهبط إلى القلب، ويصعد منها ما يصعد إلى العقل، ويتسرب بعضها فيحرك الجوارح، لقلتَ والله لولا أن الذي شغل القرضاوي عن شعره كان علوم الدين، لرجوت أن لم يكن شغله في حياته عن الأوزان والقوافي والعَروض والقصائد شاغل، إلا صلاته وعملٌ يأكل منه رزقًا حلالاً، ولا شيء آخر إلا ديوان بعد ديوان.

مسرحية يوسف وما بعدها

في الصف الأول الثانوي، كان يوسف جالسًا يجرب لأول مرة حظه، ويترك لقلمه العنان، يحرره من خوفه، ويخط به مسرحية "يوسف الصديق"، متأثرًا على طريقة شوقي أمير الشعراء في "مجنون ليلى" و"مصرع كليوباترا"، وضاعت للأسف هذه المسرحية، لكن ربما عُثر على نسخة منها فيما بعد، لم تطبع وتدرج في أعماله، نقل منها الأديب الفلسطيني حسني أدهم جرار مما اطلع عليه عند الشيخ القرضاوي نفسه، وقد كتب الشيخ في إهدائها:

إلى من رمته العاديات بسهمها
فبات يعاني الضرَّ إذا عضه الدهرُ
إلى من طواه العمر وهو معذبُ
لياليه سوداءُ وأيامه غبرُ
إلى من رماه الهم في جُب حيرةٍ
وأُدخل سجن البؤس ليس له وزرُ
لمن غالبَ الأيام حتى غلبْنَهُ
وظنَّ محالاً أن يكون له نصرُ
إلى من جافاه حِبّه وهو هائمُ
فظل كئيبًا لا يبشّ له ثغرُ
وبات مهيض القلب في عينه قذى
وفي صدره جمرُ وفي فمه صبرُ

كانت هذه الأبيات الرقيقة في مطلع المسرحية، فتخيل كيف كانت المسرحية نفسها، فعساها تنشر في يوم ما مع تراث القرضاوي، فنعرف إلى أي حَد كانت رقيقة، كأنه استشعر أن نبي الله يوسف -عليه السلام- كان أمامه، كان يوسف معه في السجن، في ليلته الأولى، وهي أصعب ليالي السجين على الإطلاق، يربت على كفه، ويهديه أبياته، فيهدّيه بها، فكانت خير سلوى.

وكل هـذا؛ وكان يوسـف في عـداد المراهقيـن، في الصـف الأول الثانـوي، لكنهـا كانـت سـمته، وسـمة هـذا الزمـان، أن يكـون المتعلـم بحـد ذاتـه عـالمًا، ومطالـع نصـوص الأدب في الصـف الدراسـي أديبًـا، وقـد كان كثيـرُ منهـم هكـذا، وتسـتطيع تبيّـن ذلـك مـن الرسـائل والمكاتيـب والمـراسلات حينهـا، بيـن الـطلاب وأهلهـم، وبيـن المسـافرين وأسـرهم، حتـى تظـن أن كل شاب في مصر مجازٌ في البلاغة.

وقـد كتـب يوسـف نفسـه لنفسـه في مطلـع مسـرحية "يوسـف الصديـق" إهـداءً بسـيطًا، ينـمّ عـن بـراءة شـعور هـذا الفتـى، وعـن موهبتـه معًا، قال في إهدائه:

أمُصور الأجسـام والأبـدانِ

هلا تصـورِ حكمتـي وبيانـي؟!

أتصوّرَن وجه الرجال وتتركَن

تصويرَ ما بهمو من العرفانِ؟

المـرءُ ليس بوجههِ أو جسمهِ

لكـن بفكـرٍ ثاقـبٍ ولسـانِ

لو كان قدر المرء جسمًا لا حَجًا

لسمـا عليه الثـورُ بالجسمانِ

مـن يقـول إن هـذا فتـى لـم يبلـغ العشـرينَ بعـد؟ مـن يخمـن أن هـذه الأبيـات ليسـت لشاعرٍ مخضرم يكتـب فيهـا -على عجـل- زبـدة تجاربـه وحياتـه، وخلاصـة مـا توصـل إليـه بعـد عمـر فنـى بيـن حـوادث الدهـور وتقلبـات الأزمـان؟ لا أحـد يسـتطيع تخميـن ذلـك، لكنهـا بدايـات الأدبـاء النجبـاء، والفقهـاء الأذكيـاء، كان يوسـف واحـدًا مـن هـؤلاء، أو ربمـا كان يوسـف وحـده، هـذا الرجـل الخـاص جـدًا، بتفـرده، وفطنتـه الشـعرية، وعذوبتـه اللغويـة، الـذي اختـار هـو بمحـض إرادتـه أن يضـع أبياتـه جانبًـا، مـن أجـل رسـالة يؤديهـا في بيـوت اللـه، فلـم يكتـب تقريبـا شـعرًا منـذ بلـغ الأربعيـن، وتفـرغ فقـط لدعوتـه وميدانـه، لكـن حيـن تـرى لقـاءً لـه ينشـد فيـه مـن شـعره أو أناشـيده أو يتحـدث عـن شـيء منـه أو ذكريـات تخصـه، وجـدت في عينيـه مـن الألـقِ مـا يؤكـد حنينـه إلـى القـوافي، وكان كل مـا كتبـه ونُشـر لـه، ونُقـل عنـه، حسـب مـا دَوّن أو دُوّن لـه، لا يجـاوز العشرين قصيدة.

وعلى الرغـم مـن قلـة عـدد القصائـد، كانـت أبياتهـا مـن النـوع المكثـف المركـز، يتنـاول الموضـوع أو القصـة أو القضيـة في نحـو سـبعين أو ثمانيـن بيتًـا، ويغلـق القصيـدة، فتشـعر ألا شـيء يقـال بعدهـا، وقـد لخـص مـا فيهـا، وأسـهب في الآن ذاتـه، فلـم يكـرر الألفـاظ ولـم يبتـذل الأوصـاف ولـم يبخـل بالمعانـي، وهنـا إشـارة مهمـة أن قصائـد الرجـل الطويلـة تنـمّ عـن النهـر الـذي في داخلـه، لكنـه كُبـح بسـدٍّ منـع عنـا فيضانـه، والحقيقـة أنـه كان حبسًـا لا سـدًّا، لا يمنعـه عنـا وإنمـا يحرمنـا نحـن منـه، وهـو القائـل في قصيدتـه مناجـاة ليلـة القدر:

سمَّوْه شعرًا وإني لا أراه سوى

آهات قلبي وإحساسات وجداني

على الرغم من قلة عدد القصائد، كانت أبياتها من النوع المكثف المركز، يتناول الموضوع أو القصة أو القضية في نحو سبعين أو ثمانين بيتًا، ويغلق القصيدة، فتشعر ألا شيء يقال بعدها، وقد لخص ما فيها، وأسهب في الآن ذاته، فلم يكرر الألفاظ ولم يبتذل الأوصاف ولم يبخل بالمعاني، وهنا إشارة مهمة أن قصائد الرجل الطويلة تنمّ عن النهر الذي في داخله، لكنه كُبح بسدٍّ منع عنا فيضانه، والحقيقة أنه كان حبسًا لا سدًّا، لا يمنعه عنا وإنما يحرمنا نحن منه.

نفحات الشاعر يوسف ولفحاته

في ذكرى المولد النبوي، كتب الشيخ يوسف القرضاوي، وكان في الرابعة والعشرين من عمره، قصيدةً في ستة وستين بيتا، يقول في مطلعها:

هو الرسول فكن في الشعر حَسّانا
وصُغ من القلبِ في ذكراه ألحانا
ذكرى النبيّ الذي أحيا الهدى وكسا
بالعلم والنورِ شعبًا كان عريانا

ويقول:

خلفت جيلاً من الأصحاب سيرتهم
تضوع بين الورى روْحًا وريحانا
كانت فتوحهمُ بـرًّا ومرحمـةً
كانت سياستهم عـدلاً وإحسانـا
لم يعرفوا الدين أورادًا ومسبحـةً
بل أشربوا الدين محرابًا وميدانـا

ويقول من أجمل ما قيل في رثاء رسول الله وذكراه وتذكره:

يا سيـد الرُّسْل طب نفسًا بطائفـة
بـاعوا إلى الله أرواحًا وأبدانا
قادوا السفينَ فما ضلوا ولا اضطربَت
وكيف لا! وقد اختاروك رُبّانـا
أعطوْا ضريبتهم للديـن من دمهـم
والناس تزعم نصر الدين مجانا
أعطوا ضريبتهم صبـرًا على محنٍ
صاغت بلالاً وعمارًا وسلمانـا

وقال في القصيدة نفسها ما يحكي به عن فلسفته في فهم المحن:

قالوا: إلى الطور، قلنا: ذاك مؤتمـرُ
فيه نقرِّر ما يخشـاه أعدانـا!
فهو المصلّـى نزكّـي فيـه أنفسنـا
وهو المصِيف نقـوي فيه أبدانا
معسكـر صاغنـا جندًا لمعركـة
ومعهـد زادنـا للحـق تبيانا
من حرَّموا الجمع منا فوقَ أربعةٍ
ضموا الألوف بغابِ الطور أُسدانا!
راموه منفًى وتضييقًا، فكان لنـا
بنعمة الحب والإيمان بستانا!
هذا هو الطـور شاءوا أن نـذوب به
وشـاء ربـك أن نزداد إيمانا

تخيل أن هذه قصيدة، بكل ما فيها من معانٍ، بما ذكرناه منه وكثير لم نذكره، لفتىً في الرابعة والعشرين من عمره، أكرر السؤال ولكنه ليس تكرار الابتذال، وإنما تكرار واقعي، ستسأله لنفسك بين كل بيتين تقريبًا للقرضاوي، لن نعلق كثيرًا على الأبيات ومعانيها، فمقام المعنى أكبر من أن يفسره واحد، ومقام اللفظ أرقى من أن يتحدث فيه مثلي، واللفظ لفظ أديب مفوّه عظيم البيان ومهيب اللسان.

وقال القرضاوي يرثي صديقه زكي الدين أبو طه، أحد رفاق المحنة، رثاءً رقيقًا مبكيًا، وقد لقي من التعذيب ما لقي حتى توفي بعد خروجه من السجن:

أبكي على غصنٍ نما في روضةٍ
للحق، أذبله المنـون ذبولا
أبكي على نجم أنار ضياؤه
دهرًا وأسرعَ للمغيب أفـولا
أبكي فتى فوق الثريا نفسه
يلقى الممات ولا يعيش ذليلا
أبكي فتى صلبًا تكاد تخاله
عُمَرًا، يخيف ولا يخاف قبيـلا
صعبُ علينا أن نرى بدرًا هوى
ونرى التراب على سناه مهيلا
صعبُ بأن نجد الذي حمل الهدى
أمسى على أعناقنا محمولا
صعبُ علينا أن يباعد بيننا
هذا التراب فلا نراه طويـلا
يا من ضربتَ لنا المثال مضحيًا
وأريتنا صور الجهاد الأولى

فحييتَ في ظل العقيدة ثابتًا
وأبيتَ إلا أن تموت أصيـــــــــلا
قد كان آخر ما نطقت بذكره
"الله أكبر" رُتلت ترتيـــــــــلا
ألقوك في ظلَم السجون وظلمها
فأضأت في ظلماتها قنديـــــلا
وصبرتَ صبر الأنبياء كأنما
تلقى ثباتك من يديْ جبريـــــلا
يا مؤمنًا كانت حياتك قدوةً
ستظل روحك في الطريق دليـــلا
نَمْ يـا زكيّ الدين إنك خالدٌ
ما كان ذكرُك يا أخي ليـــــزولا
نم يا شهيد الحق مسرورًا، فقَد
كان المنام لديك قبلُ ثقيـــــلا

أي رقـةٍ، وأي عذوبـة وأي بـكاء؟ مـن أيـن جـاءت كل هـذه الدمـوع يـا شـيخ؟ ومـن أيـن أتيـت بهـذا الجمـال المبكـي؟ حتـى ليظـن القـارئ أنـك مـا فقـدت في حياتـك صاحبًـا قبلـه ولا بعـده، وأي أثـر تركـه في نفسـك حتـى تغسـله بدموع الناس بعد وفاته بسبعين سنة؟

ولعـل أجمـل وأعظـم وأطيـب مـا كتـب القرضـاوي في الشـعر، هـي نونيّتـه الخالـدة، التـي ألفهـا في السـجن الحربـي عـام 1955، وفيهـا تصويـر لما قاسـوه داخـل السـجون في هـذه الفتـرة العصيبـة، ويعـرف النـاس منهـا مـا اشـتهر في نحـو خمسـين بيتًـا، لكنهـا قصيـدة أكبـر مـن ذلـك، أكثـر مـن 6 مـرات! فعـدد أبياتهـا ثلاثمائـة وبضعـة وعشـرون بيتًـا، ولـم يحفظهـا المعتقلـون فيمـا كتبـوه، لأن الأوراق والأقلام كانـت ممنوعـة، وإنمـا حفظـت في الصـدور، حتـى جمعـت فيمـا بعـد ودُونـت قصيـدة كاملة، نذكر منها ما يلي:

ثارَ القريضُ بخاطـــري فدعونـــي
أفضـــي لكمْ بفجائعي وشجونـــي
فالشعرُ دمعي حينَ يعصرني الأسى
والشعرُ عودي يومَ عزفِ لحوني
كم قال صحبي: أين غرُّ قصائـــدٍ
تشجي القلوبَ بلحنها المحـــزونِ؟
وتخلّـــد الذكـــرى الأليمةَ للورَى
تُتلى على الأجيـــالِ بعـدَ قرونِ
ما حيلتـــي والشعـرُ فيضُ خواطرٍ
ما دمتُ أبغيـــهِ ولا يبغيني؟!
واليوم عاودنـــي الملاكُ فهزنـــي
طربًا إلى الإنشـــادِ والتلحيـــنِ
ألهمتُها عصمـــاءَ تنبُـــع مِن دَمي
ويَمُدُّها قلبـي ومـــاءُ عيونـــي
نونيـــــةُ والنـونُ تحلـو في فمي
أبـدًا فكدتُّ يُقال لي ذو النونِ
صَـوَّرتُ فيها ما استطعتُ بريشتـــي
وتركـــتُ للأيـــامِ مـا يعييني
ما هِمْـتُ فيها بالخيـــالِ فإنَّ لي
بغرائـــبِ الأحداثِ ما يُغنيني
أحداثِ عهدِ عصابـةٍ حكمَوا بني
مصـــرَ بلا خُلـــق ولا قانـونِ
أنستْ مظالِمُهُمْ مظالـــمَ مَـــن خلَـوْا
حتّى ترحمَنـــــا على نيـرونِ!

ويقـول في وسـطها أشـهر أبياتـه، وأشـهر مـا انتشر في أوساط الحركة الإسلامية:

إنّا لعمـــري إن صمتنـــا برهـــة
فالنـار في البركانِ ذات كمـونِ
تالله مـا الطغيـان يهـــزم دعوةً
يومًـا، وفي التاريـــخ بر يميني
ضع في يدي القيد، ألهب أضلعي
بالسوط، ضع عنقي على السكينِ
لن تستطيع حصار فكري ساعـة
أو نـــزع إيمانـــي ونور يقينـي
فالنور في قلبـي.. وقلبي في يديْ
ربي، وربـــي ناصـري ومعيني
سأعيش معتصما بحبل عقيدتي
وأمـــوت مبتسمًـا ليحيـا ديني!

ويختمها بأبياته:

يا مَن أجبت دعاء نوح "فانتصر"
وحَمَلْتَــهُ في فلكــك المشحــونِ
يا من أحـــال النار حول خليلـــه
رَوْحًا وريحانًا بقولــك: "كُونـــي"
يا من أمـــرت الحــوت يَلْفِظُ يونسًا
وسترتَه بشجيـــرة اليقطيـــنِ
يا رب إنا مِثلـــه في كُربـــةٍ
فارحـــم عبـــادًا كلهـم ذو النونِ

ولــو لــم يكتــب القرضــاوي في حياتــه كلهــا، طوال 94 عامًا، إلا هذه القصيدة، لكفَته.

وللقرضــاوي قصائــد أخــرى في الســعادة ومعانيهــا حيــث هــي ثمانــي قصائــد في قصيـدة واحـدة، وغيرهـا ممـا تجـده في ديوانـه الــذي حــرره الأســتاذ حســني جــرار، "نفحــات ولفحــات"، لكــن المقــام هنــا لا يتســع لأن نذكــر أبياتًــا مــن الديــوان كلــه فنختــم بمقتطفــات أخيـرة، وكلمـا قلـت مقتطفـات أخيـرة وجدتنـي أريــد اقتطــاف الديــوان كلــه، لكــن هــذا وعــد هــذه المــرة بــأن نذكــر بعــض الأبيــات، وللقــارئ أن يستزيد ما يشاء من المنبع.

يقــول في الابتهــال وقــد كتبهــا في زنزانتــه، وألقاها القرضاوي من قبل وهو يبكي:

يا من له تعنو الوجوه وتخشـــعُ
ولأمره كل الخلائق تخضـــــــعُ
أعنـــو إليك بجبهـــةٍ لم أحنِهـــا
إلا لوجهك ساجدًا أتضـــــرعُ
ولكم ذكرتُك خاليًا فوجدتنـــــي
والقلب في وجـــلٍ، وعيني تدمـــعُ
هل لي رجاءُ أنني ممن دعـــــوا
يومًا إليكَ وقال: توبوا وارجعـوا؟!
وحملتُ مصباح الهداية مرشـــدًا
أهناك كالقرآن نورٌ يسطـــــعُ؟!
ومشيتُ في ركب الهداة، وإن أكُن
أبطأتُ في طلب الكمال وأسرَعوا!
حسبي أحبهم وأقفو خطوهـــــم
ولكَم أرى حب الأكابـــر يشفـــعُ

وفي المناجـاة حيـن اشـتد مرضـه قبـل نحـو خمسـة وثلاثيـن عامًـا، وظـن أن موعـده قـد اقترب، قال:

يا رب ها جسمي يشيخ ويمرضُ
والوهن وافاني سريعًا يوفـــضُ
ولّت سنـــو عمري كرؤيـا نائم
ومضى شبابي مثَّل برقٍ يومـضُ
ودنا الرحيـــــل ولم أهيئ زاده
وخيـام أيامي تكـــاد تقـــوضُ
كل النفائس قد تُعوض إن تضِع
والعمر -إن ضيعت- ليس يعوضُ
ما بعد نضج الزرع غير حصاده
هي سنـــةٌ لله ليســت تُنقـــضُ
ما لي سواك إذا الخطوب تفاقمت
أمرى إليك على الدوام مفـــوَّضُ
لو كـــان لي ربٌّ سواك رجوتُه!
فلمن أمد يدي ومن أستـقرضُ؟!

وقــال في الكفــاح وهــو طريــح الفــراش في مرضه عام 1985:

يا أمتـــي وجب الكفـــاح
فدعي التشـدق والصيـــاحْ
ودعي التقاعس ليس يُنـ
ـصَرُ من تقاعس واستراحْ
ودعي الريـــاء فقد تكلـ
ـمت المذابـحُ والجـراحْ

وكتب في الغزل ما ستقرأه الآن:

أنثـى تـــروق أخـا الهيام
حسناء فارعة القـوام
جســـم رشيـــقٌ زانَـــه
عنـــقٌ حكى عنقَ النعام
بنت الصعيـــد كريمـــة
من طينـــة القوم الكرام
قـــــنويّةُ[1] لكـــنهـــا
بيضاء كالبدر التمام

والحــق أن هــذه القصيــدة كتبهــا القرضــاوي متغـزلًا في "قُلـة" قناويـة، مصنوعـة يدويًـا مـن الفخــار لحفــظ الماء بــاردًا كانــت ترافقــه في زنزانته في السجن الحربي.

1 قنوية يقصد من قنا

وكتب القرضاوي، قصائد أخرى، تجدونها كاملة كما أسلفنا في "نفحات ولفحات". فضلا عن العديد من الأناشيد التي ما زالت تتغنى بها الحركة الإسلامية حتى الآن، ومنها: يا سجون اشهدي، ومسلمون، ونشيد العودة، وفتى القرآن، والله أكبر، وأنا المسلم.

ونختم ببيتٍ من قصيدته "أنا والشعر":

وقفتُك يا شعري على الحق وحده

فإلم أنل إلاه قلت لهم: حسبي!

مات القرضاوي، رحمه الله، وبقي لنا مما ترك لمن أراد أن يستزيد من بعده، علمًا ودينًا، وشعرًا وأدبًا، هذا الرجل الذي ملك مفاتيح للفصاحة لم يملكها معاصرون معه وسابقون له، فاستطاع أن يسوق الحجج برجاحة عقله وفصاحة قوله ودقة نقله واستطاع أن يفلت أحيانًا من هيمنة العلم فصاغ لنا في الأدب خالدات تبقى بعده، وترك كلمات تجري مجرى الحكم، وأبياتًا لها وقعُ خفيف على النفس، ثقيل في القلب، وقصائد تحوي من الدرر ما تحوي البحور من اللآلئ، وعذوبةً وُلدت من العذاب، وعساها بذلك الجمال لأنها ولدت بهذه الطريقة، فلن تسمع عن الوطن أجمل مما يخرج من فم مغترب أو منفيّ، ولن تسمع عن الحبّ أجمل مما ستسمع من فم مجروح قلبه، ولن تسمع عن رحمة الله أجمل مما ستسمع من فم عاص تائب، ولن تسمع شعرًا رقيقًا عذبًا خاصًا حلوًا جسورًا، يجمع كل تلك المحاسن، لفقيهٍ اشتغل بالعلم واعتزل الشعر، كما تسمع من قليل، ضمنهم يوسف القرضاوي.

معالم المنهجية التربوية عند القرضاوي

معالم المنهجية التربوية عند القرضاوي

حسين رضا

باحث في مجال الدراسات القرآنية

ما بين مريض أخفاه المرض عن الساحة، وميت طوته الأرض عن الجماهير المتعطشة لمواقف العلماء الربانيين، ومسجون غيبته الأنظمة المستبدة عن صفوف الشعوب كي تعيث في البلاد فسادا، وآخرين لا يزالون صامدين في وجه الظلم ومحاولة خطف الأمة عن طريقها، باتت شجرة علماء الصحوة الإسلامية المعاصرة تتساقط أوراقها وثمارها اليانعة، وكأنها تستقبل الشتاء بعدما أذبلتها رياح الخريف، ولعل آخر أولئك الأفذاذ الذين أفجع الأمة نبأ وفاته العلامة الإمام الفقيه الداعية المجتهد يوسف القرضاوي رحمة الله تعالى عليه.

subulmagazine.com

لم يكن موت الإمام يوسف القرضاوي مجرد موت عالم حمل العلم في رأسه ودرّسه طلابه، فقد كان الرجل عالمًا من صفوف الأمة، التف حوله الملايين من الناس في كل بقاع الأرض، كان يتحرك بين الناس بروحه وجسده وكلماته وفتاوى فقهه الواسع اليسير، لذا جاء نعي الرجل معبرًا عن ضمير الأمة اليقظ المتعطش إلى مواقف العلماء البطولية التي ترجمها بين صفوفهم في ميادين الثورة والكلمة، فتناول كل عالم من علماء الأمة وباحث من باحثيها في نعيه للشيخ جانبًا مشرقًا من جوانب علمه وعمله وجهاده وحركته، ولأنني أعد نفسي من أولئك الذين حالفهم الحظ حين عملت لفترة على تحرير وصناعة محتوى صفحات الشيخ من كتبه وخطبه ومحاضراته، فإنني أتناول في تلك السطور القليلة بعض معالم المنهجية التربوية التي أسس لها الشيخ -رحمه الله- في تراثه وخطبه ومقالاته وقصائده ومواقفه البطولية، التي أجبرت خصومه على إجلاله قبل أن تملأ قلوب أتباعه بحبه واحترامه والاقتداء به.

الصبر والصمود بكافة أشكالهما

الصبر في حياة القرضاوي تمدّد ليشمل حياته طولا وعرضا، إذ قد عانى لأواء الحياة وآلام اليتم والفقر والعمل من الصغر ليكفي نفسه وبيته، ومما قاله الشيخ عن نفسه وأنقله بتصرف: "لقد شاركت في تنقية الدودة من القطن، ثم كنت أعمل في جني القطن وهو عمل شاق بطبيعته فضلاً عن كونه في أشد أيام الحر، وكنت أعمل وعلى ما أذكر أن الأجرة كانت قرشين صاغ، لكنني لم أكن

أقدر على مثل هذه الأعمال الشاقة، ولعل الله قد دبر لي ما يناسبني، فكل ميسر لما خلق".

الشاهد هنا أن حياة القرضاوي رحمه الله لم تكن حياة أبناء الأثرياء والأغنياء بل كانت حياة عامة الشعب المصري في زمانه، طفل يتيم تربى في بيت عمومته، ولعل ذلك ما جعل قلب الشيخ ينبض بحب الناس ويتفاعل مع أوجاعها حتى مماته.

إن القارئ الحصيف لكتب الشيخ، والمشاهد المنصف لأعماله يجد في كلام الرجل وفتواه وشرحه وتفنيده وتقليبه المسائل ما يبهر العقل بجودة الحفظ ودقة الفهم وقوة الترجيح، وهو ما يبين لنا بأن رحلة الشيخ في طلب العلم لم تكن رحلة عادية مما يسلكها بعض الدعاة والوعاظ، وإنما كانت رحلة جادة شاقة، كابد فيها الرجل منذ بدأ دراسته في المعهد الديني بطنطا، بعد انتسابه له واستئجاره حجرة بمبلغ ثمانية عشر قرشا يسكنها ثلاثة من الطلاب، لم يكن للشيخ وابن عمته فيها سوى حصيرة يفترشها على الأرض الترابية، بل لم يكن يُسمح له باستخدام مرحاض المنزل إلا للضرورة القصوى، والأصل المتفق عليه أن يستخدموا حمامات البلدية العامة التي كانت على بعد خطوات من مسكنه.

وبين القراءة في الكتب والتتلمذ على يد العلماء الكبار والأئمة الأفذاذ مضى القرضاوي يقطع أيام حياته، حتى آخر أيامه، ولعل من أشهر كلماته: "أنا تلميذ وسأبقى تلميذا إلى آخر عمري". من يعرف الشيخ يعرف أنه في أواخر أيامه واصل الليل بالنهار مع فريق مكتبه من أجل إصدار موسوعة أعماله الكاملة التي جاوزت المائة مجلدا، ليكون بها من أغزر أعلام الأمة إنتاجًا.

لم يقتصر إنتاج القرضاوي على الكتب والأبحاث والمقالات، بل ترك لنا مئات المحاضرات المسموعة والمرئية، وسافر إلى عشرات الدول محاضرًا وخطيبًا، وشارك في مئات الندوات والمؤتمرات الدعوية والفكرية، وعلى رغم كل ذلك لم يغب يومًا من الأيام عن قضية كبيرة أو صغيرة من قضايا الأمة، فأنى للرجل كل ذلك إن لم يكن قد تزين بالصبر على البذل والعمل والسهر والحركة، وحمل هم دعوة الله في فؤاده وعقله قبل أن تحملها صفحات كتبه وشاشات إعلامنا إلينا.

منذ أن وعى الشيخ ومن أول يوم استمع فيه إلى خطبة الإمام الشهيد حسن البنا -يرحمه الله- في شعبة الإخوان قرب ميدان الساعة بطنطا عن الهجرة النبوية، والتي حفظها القرضاوي عنه، ارتبط رحمه الله بالعمل للإسلام، وتملكت هموم أمته من قلبه وفؤاده، فراح يتحرك بالدعوة إلى الله، يرشد الناس إلى الخير ويدلهم على طريقه ويبين لهم معالمه، كما راح يشارك في كل فعالية تخدم قضايا الأمة في كل مكان، وعلى رأس تلك القضايا جميعها قضية فلسطين الحبيبة، فقد حكى عن نفسه قائلا: "كانت قضية فلسطين طيلة المرحلة الثانوية قضية هامة وحية وساخنة في نفوسنا".

subulmagazine.com

ومن الثانوية حتى مماته لم يتأخر القرضاوي يومًا من الأيام عن نصرة فلسطين، ودعم المقاومة، بل كانت كلماته التي تناقلها الملايين وهو يبكي ويتودد إلى الله أن يعيش حتى يشارك في فتح بيت المقدس ويسقط شهيدًا في ساحة حرب التحرير بعدما تأتيه رصاصة تفصل هذا الرأس النقي عن الجسد الذكي، أسأل الله له أجر الشهداء.

حفلت حياة الشيخ -رحمه الله- بالمحن منذ بدايتها، حيث اعتقل في عهد عبد الناصر، وتعرض لألوان العذاب، وقد سرد الشيخ في أكثر من لقاء وكتاب وهو يبكي مواقف موجعة ومشاهد مروعة مما تعرض له وإخوانه في سجون الظالمين، لعل منها ما حكاه يوم نادى السجان على كافة المعتقلين أن يخرجوا إلى ساحة السجن ليجدوا حمزة البسيوني وحوله عساكره وزبانيته المجرمين، ثم أمر جميع المعتقلين بالوقوف في شكل دائرة وجعلهم يدورون أمام العساكر الذين صبوا عليهم جام حقده وحنقه على دين الله ودعاته، فجلدوهم بالسياط، ولم ينته التعذيب حتى سقطوا واحدًا وراء الآخر من تعب الدوران، ولم يرحم الظلمة ضعفهم حتى بعد سقوطهم، بل كانوا يزيدون عليهم العذاب.

الربانية في حياة الإمام

ما كان للقرضاوي ولا لغيره من علماء الأمة الأفذاذ أن يصلوا إلى قمة العلم والجهاد إلا بارتباط القلب بالله، وتعلق الفؤاد بالمولى جل وعلا، والربانية التي نقصدها هنا تتمثل في أربعة عناصر شملتها مقالة مطولة للشيخ محمد الشناوي بعنوان "الربانية في حياة الإمام يوسف القرضاوي" وهي: الإيمان بالله والعبادة والإخلاص له وحده، وتعلم القرآن والسنة علمًا متقنًا، والعمل بما يتعلمه العالم بما يتوافق مع فقه الإسلام قبل أن يأمر به العامة من الناس، وأن يحمل العالم علوم دينه يرشد بها الناس ويدعو بها إلى الله ويبين بها سبيل الحق ويدحض بها سبل الباطل والإفك.

ونحسب أن الإمام القرضاوي قد قام بحق الربانية بالقدر الذي وفقه الله له، فلم يأل جهدا في التعلم والعلم والعمل والحركة والدعوة والسعي بدين الله بين صفوف الناس في مشارق الأرض ومغاربها عن علم وفقه ووعي وإدراك باختلاف البيئات والظروف والنفوس والطبائع ومستجدات القضايا العامة في حياة الشعوب والأمم.

أما عن إخلاصه فهو أمر بينه وبين ربه؛ لكن شواهد ثمار حركته وسعيه تترجم أن الرجل لم يكن يقصد بعمله ولا كلماته سوى وجه الله وحده، وإلا لما ذاق ويلات السجن، وهجران الوطن والأهل، والتنكيل بابنته وزوجها، ومطاردة ابنه بعد

الانقلاب العسكري الدموي في مصر، بل قد حكم عليه قضاة الظلم والبغي في مصر بالإعدام، وقد قابل كل ذلك بتفويض الأمر لله ثابت القلب واثق الخطى، مستمرًا في دعوة الشعوب إلى مقاومة الطغاة ومدافعة الظلم حسبة لله وحده.

الوسطية والتيسير في الفتوى

"المفتي البالغ ذروة الدرجة هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال" هذا من كلام الإمام الشاطبي رحمه الله، والعلامة القرضاوي قد اتبع منذ أول أيامه المدرسة الوسطية، بل وكان رائدًا من روادها، والمدرسة الوسطية في تعريف القرضاوي: "لا تغفل النصوص الجزئية من كتاب الله تعالى ومن صحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنها لا تفقه هذه النصوص الجزئية بمعزل عن المقاصد الكلية، بل تفهمها في إطارها وفي ضوئها، فهي ترد الفروع إلى أصولها، والجزئيات إلى كلياتها، والمتغيرات إلى ثوابتها، معتصمة بالنصوص القطعية في ثبوتها ودلالتها ... ومتشبثة كذلك بما أجمعت عليه الأمة إجماعًا يقينيًا حقيقيًا".

يقول رحمه الله: "ومن معالم الفكر الذي ننشده أنه فكر وسطي الوجهة والنزعة، فكر تتجلى فيه النظرة الوسطية المعتدلة المتكاملة للناس والحياة ... بعيدا عن الغلو والتقصير". وفي وضوح جلي يقول رحمه الله: "ومما أحمد الله تعالى عليه أني تبنيت منهج التيسير في الفتوى والتبشير في الدعوة، اتباعا للمنهج النبوي الكريم، فقد بعث صلى الله عليه وسلم أبا موسى ومعاذا إلى اليمن وأوصاهما بقوله "يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا"، وروي عن أنس أنه قال "بشروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا".

تفعيل فقه الأولويات في حياة الأمة

من معالم المنهج التربوي عند الشيخ -رحمه الله- إعمال فقه الأولويات في الأمة بعدما غابت معالمه وانطمست آثاره، وذلك من خلال وضع كل شيء في مرتبته، فلا يقدم ما حقه التأخير، ولا يؤخر ما حقه التقديم، ولا يصغّر كبيرًا، أو يكبّر صغيرًا، وقد ألّف وكتب في هذا الفقه ما يكفي لتبصرة المسلم بالقضايا الحقيقية التي يجب أن يشغل بها نفسه بعيدا عن مضيعات الوقت والجهد في غير ما فائدة، لذا كان الشيخ سباقا في الكلام في قضايا الأمة الكلية، مثلما رأيناه في الثورات العربية، وقضايا مسلمي الغرب، واحتلال فلسطين، ومحنة سوريا واليمن ومصر وغيرها.

كما كان يعرف العدو الأولى بتوجيه الرمية إليه من غيره، ويقول في ذلك ويوجه، لذا لم يفت الشيخ -رحمه الله- أن يتكلم في واجبات كل وقت بما لا يضيع

الفرصة على الأمة للاستفادة من الأحداث التي تمر بها، لتجتمع الصفوف وتتضافر الجهود في الخير والحق، ومن تابع حلقات برنامج "الشريعة والحياة" تبين له من مقدمة كل حلقة كيف تناول الشيخ قضايا الأمة في مشارق الأرض ومغاربها، وكيف تواصل بحبل الله مع مسلمي العالم في كل مكان، حتى صار عالمًا عالميًا لا داعيًا محليًا.

مناصحة الحكام ومقاومة الطغاة

دأب الشيخ القرضاوي على توجيه النصح للحكام في أكثر من مناسبة بما يمليه عليه ضميره وبما يوافق الشرع والحق، وقد حاول جاهدًا أن يجمع بين الأنظمة الحاكمة والشعوب المقهورة على ما فيه خير الدين والدنيا، ولعل ذلك يتبين لك من كتاباته وخطبه وحلقاته التلفزيونية، لكن لما استفحل الأمر وطغت الأنظمة وقتلت الشعوب بدم بارد للبقاء على سلطتها ومصالحها دون مصالح العباد ثارت ثورته ضدهم، وشهد كل العالم ثورة الرجل في الوقت الذي تخفّى فيه غيره عن ساحة الأمة المسكينة.

لم يكن الشيخ القرضاوي يداهن في مناصحة الكلام ومناصرة الشعوب مع أي من حكام الدول، ولا حتى دولة قطر التي أقام فيها سنوات عمره الطوال بعدما خرج من سجون مصر، ولعل الجميع شاهد كلمته الشهيرة لما سأله المقدم ماذا تقول في القاعدة الأمريكية في قطر، وموقفها من دولة الاحتلال الإسرائيلي، كيف أن الرجل ثار وأنكر وقال بوضوح أنه لا يداهن في الحق، وقال على منبره يوم استضافت الدولة مسؤولاً من دولة الاحتلال: "وجب على كل من صافحه أن يغسل يده سبعًا إحداهن بالتراب بداية من الأمير". وعلى هذا النهج مضى حتى لقي الله ثائرا محتسبا أجره عند ربه.

"من معالم المنهج التربوي عند القرضاوي إعمال فقه الأولويات في الأمة بعدما غابت معالمه وانطمست آثاره، وذلك من خلال وضع كل شيء في مرتبته، فلا يقدم ما حقه التأخير، ولا يؤخر ما حقه التقديم، ولا يصغّر كبيرًا، أو يكبّر صغيرًا، وقد ألّف وكتب في هذا الفقه ما يكفي لتبصرة المسلم بالقضايا الحقيقية التي يجب أن يشغل بها نفسه بعيدا عن مضيعات الوقت والجهد في غير ما فائدة."

الإسلام منهج حياة: الفكر السياسي عند القرضاوي

الإسلام منهج حياة: الفكر السياسي عند القرضاوي

إسلام زعبل

صحفي
وباحث سياسي مصري
يهتم بمجال الجيوبوليتيك،
والدراسات الأمنية،
ونظريات العلاقات الدولية

لا يبدأ البناء الفكري لأي مفكر أو عالم من فراغ، فلا بد دائما من المؤثرات الثقافية أو الاجتماعية أو السياسية أو بعض الأعمال الفكرية التي تسهم في نمو هذا الفكر، ويعد الدكتور يوسف القرضاوي من أهم العلماء المفكرين في العالم الإسلامي في القرن الماضي، وأحد رواد النهضة الفكرية الإسلامية، وهو من أكثر المفكرين المعاصرين الذين نبهوا إلى ضرورة العناية بمشكلات الحضارة الإسلامية، باعتبار أن العالم الإسلامي أضاع وقتاً طويلاً، بسبب عدم التشخيص الصحيح لأمراض الأمة التي تتألم منها منذ قرون، وذلك عائد إلى التجزيئية التي عزلت القضايا عن بعضها ونظرت إلى كل واحدة على حدة، دون ربط الكليات بالجزئيات، فدعونا نغوص بعض الشيء في قبسات من الفكر السياسي للعلامة يوسف القرضاوي.

السياسة كجزء أصيل من الإسلام

التيارات العلمانية غالبا ما تتهم الأنشطة السياسية التي تقوم بها جماعات العمل الإسلامي بمختلف مشاربها عبر وصفهم بتيار "الإسلام السياسي" على اعتبار أنها سبة، لكن في واقع الأمر هو توصيف دقيق لرسالة الإسلام، فيقول القرضاوي: "إن وصف المتغربين والعلمانيين للإيحاء بأن الإسلام لا دخل له بالسياسة وأن الدعاة الإسلاميين يخلطون الدين بالسياسة ورفعهم لشعار لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين، من الخطأ اعتبارها سبة لأن الإسلام لا يمكن أن يكون إلا سياسيا، لأن الإسلام رسالته جاءت بمنهج حضاري متكامل، لينظم حياة الناس في جميع مجالات الحياة، بداية من الحكم وانتهاء بالعبادات، وما بين هذا وذاك قد نظم السياسات الاقتصادية والتشريعية والإعلامية والتعليمية والصحية، وحالات السلم والحرب وغيرها، وأيضا الإسلام فرض على كل مسلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو قمة النشاط والعمل السياسي.

إن السياسة عند القرضاوي قائمة على قواعد الشرع وأحكامه وتوجيهاته، متخذة الشرع منطلقا لها ترجع إليه، وتستمد منه، محددا ما يقصده بمعنى الشرع وهو القائم على اليسر لا العسر، والتخفيف عن الناس، المراعي للرخص في مقابل العزائم، وإباحة المحظورات عند الضرورات، والتدرج بالأمور، وارتكاب أهون الشرين وأخف الضررين، بعكس ما يفهمه المفكرين الذين يعتمدون علي ظاهر النص، ممن يعتبرون النصوص جامدة ويتبنون الفهم الحرفي لها، دون بذل الجهد لمعرفة مقاصد الشرع وأسراره، ودون الربط بين الجزئيات والكليات، أو الربط بين المبادئ التشريعية العامة التي تحدد أهداف الإسلام الكبرى.

السياسة الشرعية لدى القرضاوي بها الثابت والمتغير، والثابت منها ما أكدته قطعيات النصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية، وما انعقد عليه إجماع الأمة، واستقر عليه أمرها علما وعملاً

"إن السياسة عند القرضاوي قائمة على قواعد الشرع وأحكامه وتوجيهاته، متخذة الشرع منطلقا لها ترجع إليه، وتستمد منه، محددا ما يقصده بمعنى الشرع وهو القائم على اليسر لا العسر، والتخفيف عن الناس، المراعي للرخص في مقابل العزائم، وإباحة المحظورات عند الضرورات، والتدرج بالأمور، وارتكاب أهون الشرين وأخف الضررين، بعكس ما يفهمه المفكرين الذين يعتمدون علي ظاهر النص، ممن يعتبرون النصوص جامدة ويتبنون الفهم الحرفي لها، دون بذل الجهد لمعرفة مقاصد الشرع."

ونظرا وتطبيقا، فيقوم نظامها الفكري والتربوي والتشريعي على عقيدة التوحيد والرسالة وإقامة الشعائر.

أما المتغير في السياسة الشرعية في فكر القرضاوي هو ما يدور الخلاف حوله، فهو دائما ما يربط المتغيرات بالثوابت كما يرد الشبهات للمحكمات والجزئيات إلى الكليات ويرد الفروع أيضا إلى الأصول.

ويبين القرضاوي أن أول ما يرتكز عليه فقه السياسة الذي ينشده، هو: فقه النصوص الشرعية الجزئية في ضوء مقاصد الشرع الكلية، بحيث تدور الجزئيات حول محور الكليات، وترتبط الأحكام بمقاصدها الحقيقية، ولا تنفصل عنها، وبهذا يبين أنه ينبغي أن تفهم النصوص الشرعية في ضوء الكليات، لا أن تأخذ النص وتقف جامدة عليه، بل تجمع النص وكل ما يتعلق بالقضية، وتنظر إليها حتى تعمل على تحقيق مقاصد الشريعة، مع إمكانية تغير الوسائل، بشرط عدم تعارض هذه الوسائل مع الشرع لتحقيق المقاصد الشرعية.

ومن المتعارف عليه لدى إجماع علماء الأمة الإسلامية أن مقاصد الشرع خمس وهي (الدين، والنفس، والعرض، والمال، والعقل) لكن القرضاوي أضاف مقاصد أخرى للشريعة غير الخمس المتعارف عليها والتي يرى ويؤكد أنه من الضروري إقرارها، لأن معظمها يتعلق بالقيم الاجتماعية مثل الحرية والمساواة والإخاء والتكافل وحقوق الإنسان وكل ما يتعلق بتكوين المجتمع والدولة والأمة، فعلى سبيل المثال نجده يقول: أنه بدون الحرية تفقد الشريعة روحها، وما بالكم بإنسان فاقد لحريته، هل يملك من أمره شيء؟ وهل يستطيع أن يحفظ مقاصد الشريعة الخمس الأولى؟ كما أضاف مقصد المساواة بين الخلق فلا عبودية في الإسلام لغير الله، وهكذا من مقاصد الإخاء والتكافل وحقوق الانسان.

لذلك نجد أن القرضاوي قد وفق في التركيز على هذه المقاصد الأصيلة في الإسلام والضرورية للحفاظ على الفرد والمجتمع والدولة، وهي التي تعتبر بمثابة أعمدة لبناء الإسلام العظيم، وضمانات لحماية الحقوق والحريات التي جاء الإسلام لتحقيقها، ورعايتها، والدفاع عنها.

مفهوم الدولة عند القرضاوي

لقد ناقش القرضاوي فكرة الدولة في كتابه "فقه الدولة في الإسلام" في خمسة فصول مختلفة، مثل سمة الدولة الإسلامية، والعديد من القضايا المعاصرة الهامة المتعلقة بالدولة الإسلامية، وتمييز نظرته للدولة بتقبل المفهوم الحديث الخاص بالفكر السياسي الغربي، إذا لم يكن مخالفا لأعراف الإسلام وقيمه، وكان جمهوره المستهدف بالأساس لترسيخ هذا المفهوم الحركات الإسلامية في عالمنا المعاصر، حيث وجد أن الغرب جزء من المجتمع البشري الذي يجب أن نأخذ منه ما وصل إليه من تطور في صياغة مفهوم الدولة.

وقد يتهمه البعض أنه يقلد الغرب في إقراره على سبيل المثال بالنظم الديمقراطية ويعتبره من المخالفين، لكنه في الواقع يرى أن جوهر الديمقراطية يتفق مع الإسلام بل سبق الديمقراطية بتقرير القواعد التي يقوم عليها جوهرها، وقد أقر أن الديمقراطية الغربية خاضت نشاطا طويلا ضد الاستبداد وقد اهتدت لضمانات اعتبرها الأمثل في عصرنا الحالي لحماية الشعوب، ومثل أي عمل بشري بها العديد من المآخذ والنواقص، ويؤكد القرضاوي فيما يتعلق بموقف الإسلام من الديمقراطية على أن نأخذ منها أساليبها وآلياتها وضماناتها التي تلائمنا ولنا حق التعديل فيها، ولا نأخذ فلسفتها التي يمكن أن تحلل الحرام أو تحرم الحلال أو تسقط الفرائض، باعتبار أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وأن المقاصد الشرعية المطلوبة إذا تعينت لها وسيلة لتحقيقها، أخذت هذه الوسيلة حكم ذلك المقصد.

كما حدد بعض المفاهيم السياسية السلبية للمجموعات السياسية والفكرية المختلفة، فميز بين جماعات الصحوة الإسلامية عامة، والحركات الإسلامية التي تتبنى العنف، وقال إنه بسبب المحاكمات الواسعة وحالة القمع التي تعرضت لها الحركة الإسلامية منذ خمسينيات وستينيات القرن الماضي، ظهر تيار العنف والذي سماه القرضاوي بـ "أيديولوجية المحاكمة" أو "فقه المحاكمة" فقال: "كانت هذه الأيديولوجية تصف المجتمع بالكفر".

وقال القرضاوي إن هذه الأيديولوجية يمكن قبولها على المستوى الفردي بأحكام معينة، لكن لا يمكن قبولها في مجال السياسة الشرعية التي تتعامل مع عامة الناس كمسلمين وغير مسلمين، وتتعامل مع الشرق والغرب، وأوقات القوة والضعف، وذكر أن السياسة يجب أن تحكمها الشمولية والمرونة والتوازن والرجحان، ووضع الاعتبار لتغير الزمان والمكان والإنسان.

الجهاد كمنظور للعلاقات الدولية

من وجهة نظر القرضاوي، فإن المجالات السياسية والاجتماعية بما في ذلك العلاقات الدولية تحكمها سنن كونية غير قابلة للتغيير، مثل القوانين التي تحكم العالم المادي، ففي كتابه "الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد" قدم أربعة قوانين عالمية وثابتة تحكم المجالات السياسية والاجتماعية وحتى العلاقات الدولية، حيث ذكر أن هذه القوانين تنطبق على جميع المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية على حد سواء، ويوضح ذلك في عدد من الكتب المهمة التي يضع فيها أصول وضوابط العلاقات الدولية، ومن هذه الكتب "فقه الجهاد" ، "نحن والغرب".

يعتمد القرضاوي علي سنة التدافع لضبط بوصلة العلاقات الدولية، ولدي القرضاوي رؤية أن هذا قانون للبشرية جمعاء أسس الله عليه العالم، ومن خلال هذه السنة الكونية التي وضعها الله يرى القرضاوي أن كبح جماح البشر

بالتدافع سيحافظ على الأرض من الاستبداد، وإلا فإن اضطهاد الطغاة وظلمهم سينتشر وسيتحول العالم إلي غابة يلتهم فيها القوي الضعيف.

ويرى القرضاوي أن للجهاد أنواع، بدءً بجهاد النفس لكبح جماحها، وجهاد الشيطان، وصولا لحالة إصلاح المجتمع، فالإسلام يدعو لإصلاح المجتمع بالقدر الذي يتعلق بصلاح الفرد، فيرى أن كل مسلم ملزم دينيا بتعزيز طريقة الحياة الإسلامية في المجتمع، لأن المؤمن لا يكتفي بإصلاح نفسه، بل يجب أن يعمل بلا انقطاع لإصلاح الآخرين ومقاومة الفساد في المجتمع، كما يعدد أشكالا أخرى من الجهاد، والتي تندرج في إطار جهود إصلاح المجتمع، وتشمل الجهاد في المجالات العلمية والاقتصادية والتعليمية والصحية والبيئية.

كما يتحدث عن نشر رسالة الإسلام بالحجج المنطقية والإقناع والوعظ، مشيرا لجهاد اللسان، أما فيما يتعلق بالجهاد العسكري، نجد القرضاوي يدعو لضبط مصطلح الجهاد، حيث يميز بين ىن نوعين مختلفين، "جهاد الدفع وجهاد الطلب"، ووفقا لوجهة النظر الدفاعية "جهاد الدفع" يقول القرضاوي: إن المسلمين مطالبون بما يلي: الدفاع عن أراضيهم وطرد الغزاة، إظهار القوة العسكرية والاستعداد العسكري لردع العدوان، وشن هجمات وقائية عند الضرورة القصوى فقط.

يؤيد القرضاوي بشكل لا لبس فيه وجهة النظر الدفاعية، معتبرا أن آية السيف تنسخ جميع الآيات القرآنية الأخرى التي تحرم الشروع في العمل العسكري غير المبرر، ويستند القرضاوي في رأيه إلى غياب الإجماع بين علماء المسلمين فيما يتعلق بمبدأ النسخ، ويتساءل الشيخ: كيف يمكن لآية واحدة أو بضع آيات أن تنسخ أكثر من 100 آية تدعو إلى الحوار والسلام والتسامح؟ ويستند القرضاوي في اعتناقه للرأي الأول وهو الجهاد الدفاعي إلى رجحان الآيات القرآنية التي تحرم العدوان غير المبرر وفرض الدين بالقوة.

ويذكر القرضاوي أن هناك عاملين يعززان تبنيه وجهة النظر الدفاعية، الأول أنها تزيل العوائق أمام الانتشار السلمي للإسلام، والثاني أنها ستوفر على المسلمين تكاليف ومخاطر كونهم في حالة حرب دائمة مع دول غير مسلمة أقوى، وتفتح مجالات لعلاقات متبادلة المنفعة معهم، وعلى نفس القدر من الأهمية، فإنه يشير إلى المجتمع الدولي بأن المسلمين يمتثلون للمعايير والاتفاقيات الدولية، لا سيما ميثاق الأمم المتحدة والإعلانات التي ترعاها الأمم المتحدة بشأن الحل السلمي للنزاعات بين الدول التي تحظر العدوان غير المبرر، حيث يرى القرضاوي معظم الحضارات غير الإسلامية وخاصة القوى الغربية كانت تلجأ دائما إلى القتال في المقام الأول لإنشاء الإمبراطوريات، أو لتعزيز مصالحها الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، وأن الإسلام جاء ليهدم العدوان وينشر رسالة السلام والتسامح للبشرية.

في مقدمة كتابه "فقه الجهاد" يرفض القرضاوي إدعاءات بعض الإسلاميين؛ بأن الحرب هي القاعدة في العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين، وأن المسلمين أمروا بالانضمام إلى جهاد غير المسلمين، موضحا أن هذه الإدعاءات تمثل قراءة مشوهة، وتعطي فرصة لتصوير الإسلام على أنه دين عنيف، لذلك ينتقد القرضاوي خطابات بعض المفكرين الإسلاميين البارزين مثل سيد قطب.

الأحزاب والمشاركة السياسية للمرأة

يرى القرضاوي أن التعددية الحزبية في الدول الإسلامية قد تكون من الضروريات في عصرنا، وأنها تمثل حالة من الأمان للمجتمع من أن تستبد به فئة معينة ضد باقي فئات المجتمع المسلم، ويرى أن تعدد الأحزاب في السياسة كتعدد المذاهب في الفقه، وأن التعدد المشروع هو: تعدد الأفكار والمناهج والسياسات التي يطرحها كل فريق مؤيدة بالحجج والأسانيد، فيناصرها من يؤمن بها ولا يرى الإصلاح إلا من خلالها، ويرفضها من يرى الصلاح أو الأصلح في غيرها، لكنه وضع شرطين أساسيين لتكتسب الأحزاب الشرعية في الدول الإسلامية: أولا، أن تعترف بالإسلام ولا تعاديه أو تنكره وإن كان لها اجتهاد خاص في فهمه، وثانيا، ألا تعمل لحساب جهة معادية للإسلام أيا كان اسمها وموقعها.

وللمرأة في الفكر السياسي عند القرضاوي حقوقها السياسية، ويجوز لها أن تشارك في الانتخابات بالترشيح والتصويت، لا فرق بينها وبين الرجل، لأن كل التكليفات الشرعية تشملها، ويذكرنا القرضاوي بأن المرأة قد تكون لها من البصيرة وحسن الرأي والتدبير في شؤون السياسة والحكم ما يعجز عنه كثير من الرجال، ويستشهد بالتاريخ الإسلامي الذي يخبرنا على سبيل المثال أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أصدر قرارات وعدل عن أخرى بعد مشاورة المرأة وأخذ رأيها.

موقف القرضاوي من الليبرالية والاشتراكية

يرى القرضاوي الحل الإسلامي القرآني هو الحل الطبيعي والأصيل النابع من ضمير الأمة وعقيدتها وتراثها، أما الحلول المستوردة من ليبرالية واشتراكية وماركسية لا تستقيم مع منهج الإسلام، الذي جاء بمنهج حياة متكامل الأركان، وليس من الممكن أن ينظم شؤونه فكرا مختلفا عن جوهره، ويقول الشيخ إنه من الأسباب الرئيسية لإخفاق الاشتراكية والليبرالية في بلادنا وعجزها عن تقديم الحلول لمشاكلنا خلوها من العنصر الروحي، كما أن الأيديولوجيات سواء كانت اشتراكية أو ليبرالية تعتبر من البذور التي وضعت في غير تربتها، وإنها قد تكون مناسبة وملائمة لظروف وطبيعة وتاريخ بلادها التي نشأت بها، وليس من الطبيعي أن تكون مناسبة بالكلية لمجتمعنا الإسلامي،

ويذكر القرضاوي أن العولمة بطرحها الغربي نوع جديد من الاستعمار، يصب في صالح الأقوياء ضد الضعفاء والأغنياء ضد الفقراء، لمصلحة الشمال الغني ضد الجنوب الفقير، ويرى أن العولمة السياسية هي إخضاع الجميع لسياسة القوة العظمى التي تتمثل في الولايات المتحدة الأمريكية، والعولمة الاقتصادية تعتبر تكريسا للهيمنة السياسية وضمان التبعية للغرب، أما العولمة الثقافية فيراها القرضاوي أشد ألوان العولمة خطرا لأنها تفرض ثقافة الأمة القوية الغالبة على الأمم الضعيفة المغلوبة.

> يرى القرضاوي أن التعددية الحزبية في الدول الإسلامية قد تكون من الضروريات في عصرنا، وأنها تمثل حالة من الأمان للمجتمع من أن تستبد به فئة معينة ضد باقي فئات المجتمع المسلم.

خاتمة

لقد فطن الدكتور القرضاوي إلى أن العالم الإسلامي تتجه فيه الأضواء إلى القيم السياسية الإسلامية، علما بأن الدين الإسلامي جاء بعدة قيم ومبادئ فريدة تشمل مختلف مناحي الحياة، وقد تبين ذلك من خلال الممارسات السياسية، وتحكيم العقل الذي صاحبته الدعوة الإسلامية، والتي حملت الخير للناس، وقدمت قيما سياسية نتج عنها أعظم حضارة في تاريخ البشرية، بالإضافة إلى أن الدين الإسلامي لم يكن عقيدة فحسب؛ بل كان نظاما كاملا متكاملا ترك المجال مفتوحا للتجديد والتعديل بما يتوافق مع المعطيات.

هذا مجمل ما يميز الفكر السياسي الإسلامي عند القرضاوي، غير أن في طياته بوادر لاتجاه يمكننا أن نعتبره بداية تأصيل حقيقية لمدرسة في علم السياسة على قواعد إسلامية، تبناها القرضاوي، وكانت له محاولة جادة لتجديد جوهر القيم المؤسسة للفكر السياسي الإسلامي من خلال إعادة تعريفها وملأها بمعانٍ ودلالات تتناسب مع العصر وتتفاعل وتشتبك معه.

مراجعة كتاب:
القرضاوي فقيه الصحوة الإسلامية
للدكتور معتز الخطيب

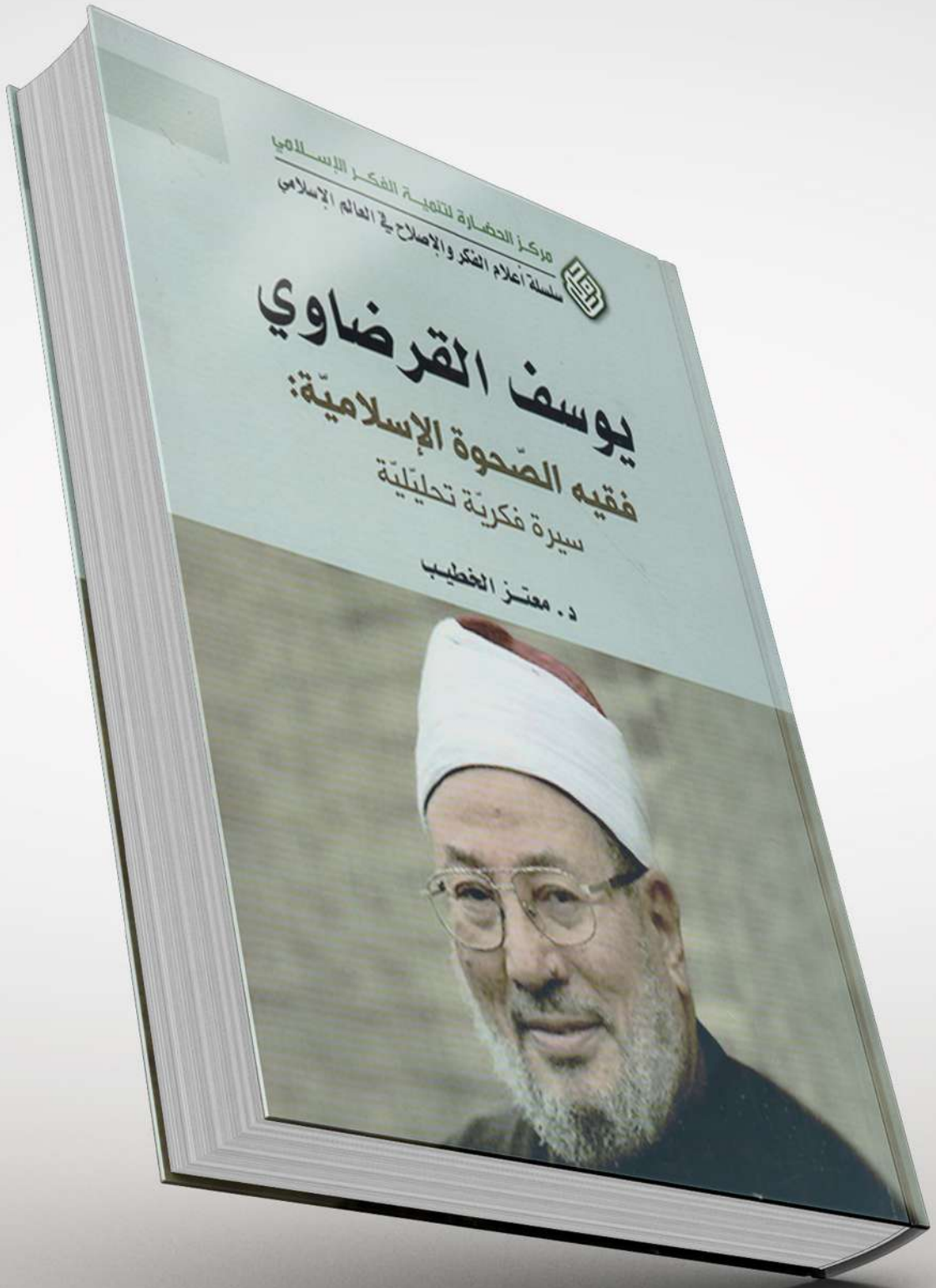

مراجعة كتاب:
القرضاوي فقيه الصحوة الإسلامية للدكتور معتز الخطيب

عبد الرحمن أحمد

باحث في العلوم السياسية

يقدم الدكتور معتز الخطيب في هذا الكتاب[1] سيرة فكرية للشيخ القرضاوي، والسيرة الفكرية تختلف عن الترجمة الشخصية بأنها لا تهتم بدراسة الشخص ودقائق حياته ومسيرته بقدر ما تقدم تحليلا مركبا، وتعتني بالسياق التاريخي والفكري من أجل معرفة كيف تكونت شخصية ذلك العالم أو المفكر، وما هي ملامح مشروعه الفكري أو الفقهي.

إن دراسة السيرة الفكرية للشيخ القرضاوي تطلعنا على ما وصل إليه الفكر الإسلامي المعاصر الذي بدأ مع الإمام محمد عبده وتوارد عليه أجيال العلماء جاء هو خاتمتهم، حيث اتصل الشيخ بهذا المسيرة وانتسب إليها علما وفكرا ومعايشة وإضافة، فهو أحد الشهود الكبار على تحولات الفكر والفقه والسياسة خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وإليه يعود الفضل مع آخرين في ظهور ما يسمي بالصحوة الإسلامية التي أعادت الطابع الإسلامي إلى الحياة العامة، وحولت ميراث الفكر والإصلاح الإسلامي إلى ميراث شعبي وجماهيري، ومع تقادم الزمن تعاظم دور الشيخ حتى بات يمثل إلى حد كبير الفكر الإسلامي، ويشكل فقيها مجتهدا يمتلك من التأثير والمرجعية ما لا يتوافر لغيره.

1 المقالة هي مراجعة كتاب (القرضاوي فقيه الصحوة الإسلامية سيرة فكرية تحليلية) للدكتور معتز الخطيب وهو كاتب وباحث، وأستاذ المنهجية والأخلاق - مركز التشريع الإسلامي والأخلاق - جامعة حمد بن خليفة. ولا تغني المقالة عن اقتناء الكتاب وقراءته لما فيه من تفصيلات وتحليلات كثيرة.

وقد جاء الكتاب في عدة فصول بدأها المؤلف في القسم الأول بسيرة تاريخية بدلا من الترجمة الذاتية للعلم الشخص المكتوب عنه على عادة كتب السير الذاتية، انتقي فيها من تاريخ الشيخ ما يخدم تحليله للسيرة الفكرية، ثم كان القسم الثاني للسيرة الفكرية وفيه صلب الكتاب، فصل فيه عن مرجعية الشيخ وسياق تشكلها وخارطة إبداعه الفكري والفقهي، إلى جانب ذكر مؤلفاته، وقد ألحق الكتاب بحوار شامل مطول تم انتقاؤه من حلقات برنامج الشريعة والحياة من 2005 حتى 2008 والذي كان يعمل مؤلف الكتاب على إعداده في ذلك الوقت.

القرضاوي مرجعًا

إن موضوع المرجعية من القضايا المهمة في العالم الإسلامي في الوقت الحاضر، والمرجعية هي الجهة التي يرجع إليها كل مُهتمّ بالشأن الديني سواء كانت الجهة مؤسسة أو فرد، طلبًا للتوجيه أو استفتاء لما يعرض له من مسائل وقضايا يحتاج فيها إلى معرفة الرأي الشرعي بخصوصها.[2]

فهي تشبه النظام القانوني في الدولة الحديثة، إذ تطبق في المحاكم والقضاء، وهي معيار السلوك والمرجع في الحياة اليومية، ومصدر الشرعية للدولة والمجتمع، ويقوم عليها طبقة الفقهاء، فهي بذلك سارية على الدولة، وبعد سقوط الخلافة قبل مائة عام تقريبا ونشأة الدولة الوطنية، ظهر صراع حاد بين الدولة والتيارات الأصولية حول إسلامية الدولة ومكانة الشريعة، وكان موضوع المرجعية مركزيا في هذا الصراع.

[2] المرجعية الدينية الإسلامية: المحددات، عوامل التشكّل والإشكاليات

في نفس الفترة كان صراع آخر على المؤسسة الدينية التقليدية بين الإصلاحيين الذين أرادوها أن تنفتح على الغرب والسلفيين الذين أرادوها أن تعود إلي إسلام القرون الأولى، وكانت الدولة أيضا موجودة داخل هذا الصراع في ظل صراعها مع الإسلاميين وسعيها لاحتواء الإسلام عبر المؤسسة الدينية وإدارة الشأن الديني، وهو ما أدي إلي ضعف المؤسسة الدينية وهيأ لظهور مرجعيات موازية تحظى بجماهيرية كبيرة وتستجيب لتحديات العصر.

في ظل هذا السياق من الظروف والصراعات بجانب صراعات أخرى أسهم القرضاوي في بناء مرجعيته وخطابه عبر أكثر من نصف قرن، وأصبحت اجتهاداته تشكل معتقدات وقناعات جمهور عريض من المؤمنين، وتصدر عنها المشروعية الدينية السائدة، وأهله لذلك ما تمتع به من مؤهلات شخصية إلى جانب البيئة المساعدة التي ساهمت في التكوين وتنمية المؤهلات واستثمارها.

أما مؤهلاته الشخصية فقد ظهرت علاماتها مبكرا حيث الجد والاجتهاد والانصراف للعلم وممارسة الدعوة والتصدي للقيادة، فكان زملائه في المعهد يتحاكمون إليه ويعدونه مرجعا لهم إذا اختلفوا في المسائل العلمية، وقد كان له نزعة نقدية بدأت من مناقشاته في المعهد الديني واستمرت لاحقا في الجامعة، وإلى جانبها نزعة نحو المعاصرة بدت من خلال تدريسه الفقه في المرحلة الثانوية، فلم يكن مرتاحا للكتب المؤلفة، إذ لم تكن تنتمي لواقع الحياة وما يحدث في دنيا الناس، بينما البيئة المحيطة التي ساعدته فكانت بداية من التحاقه بالإخوان وتأثره بحسن البنا وصولا لانتقاله إلى قطر في الستينيات،

وهو ما ساعد على توسيع علاقاته بأهل العلم والحكم وتكوين مرجعيته، فقد جاب العالم كله انطلاقا منها، وحرص على إقامة الصلات العلمية مع مختلف العلماء.

لقد ساهم القرضاوي في ملء فراغات كثيرة، وحارب هجوم الأيديولوجيات المستوردة وأفكار التطرف والعنف والتشدد وغيرها، وتأسست مرجعيته من خلال عدة نواح، بداية من الشريعة التي كانت الشغل الشاغل له وألف فيها الكتب، وكان برنامجه الشهير على قناة الجزيرة يسمي الشريعة والحياة، وأيضا الوسطية التي كانت من سمات خطابه، إذ عدها روح الإسلام والمعبر عنه، وبدا توجهه الفقهي مبكرا عندما ألف كتاب "الحلال والحرام" في الستينيات، من أجل حاجة المسلمين إليه في أوروبا وأمريكا، وكان ذلك عبر تكليف أستاذه محمد البهي له استجابة لطلب من الخارجية المصرية التي أرسلت لمشيخة الأزهر تطلب منها الكتابة في الموضوع آنذاك ، وقد لاقي احتفاء كبيرا من رموز الفكر والفقه، وترجم إلى كثير من لغات العالم، وعلى هذا المنوال أنتج القرضاوي

وعلى هذا المنوال أنتج القرضاوي في ميادين كثيرة في الفقه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ما يسد حاجة الواقع، وهو ما أسهم في عودة الطابع الإسلامي للحياة العامة واستجاب بذلك لتحديات الحياة وواقع الناس.

ولعل من دلالات قوة تأثيره هو حضوره في القضايا الإسلامية الكبرى وليس فقط على المستوى الحزبي الضيق لجماعة أو حركة، كما أن معظم المؤسسات والنشاطات العلمية والخيرية كانت تحرص على وجود اسمه فيها لما يمنحها من مصداقية ومشروعية وجماهيرية، علاوة على قيامه بأدوار عديدة وهي التي يقوم المرجع بها كالإفتاء والإمامة والخطابة والكتابات الأكاديمية والدعوية التي تخاطب الجماهير وتساهم في تشكيل الرأي العام.

الخارطة الفكرية لدى القرضاوي

في عصر التخصص الدقيق الذي نعيشه كان أبرز ما يميز القرضاوي موسوعيته، فهو يمثل استمرارا لنهج العلماء السابقين في حرصهم على الموسوعية في التكوين والتأليف، وقد انقسمت مؤلفاته إلى أقسام عدة، فصنف في التفسير وعلوم القرآن، حيث قدم رؤى إصلاحية في هذا الباب، ومما نبه عليه الاهتمام بالأمور على قدر اهتمام القرآن بها، بمعنى اتخاذ القرآن معيارا لمدى أهمية الشيء، وانتقد اقتصار العقل المسلم على اهتمامه بآيات الأحكام وإهماله لآيات التوجيه الإيماني والفكري والأخلاقي

وقد ألف في السنة وعلومها، ومما قدم فيها كتاب "كيفية التعامل مع السنة النبوية فهما وتطبيقا" وهو كتاب لم يسبق إليه أحد من المعاصرين، وفي العقيدة قدم مجموعة رسائل تميزت باعتماده على القرآن أولا في الاستدلال والبرهان والمرجعية

> "لقد ساهم القرضاوي في ملء فراغات كثيرة، وحارب هجوم الأيديولوجيات المستوردة وأفكار التطرف والعنف والتشدد وغيرها، وتأسست مرجعيته من خلال عدة نواح، بداية من الشريعة التي كانت الشغل الشاغل له وألف فيها الكتب، وأيضا الوسطية التي كانت من سمات خطابه، إذ عدها روح الإسلام والمعبر عنه."

والتصور على خلاف كتب على الكلام في هذا الباب، وكان يحرص فيها على مخاطبة العقل والقلب معا.

الفقه السياسي من الموضوعات التي انشغل بها كثيرا واستكمل فيها سلسلة طويلة من الدراسات المعاصرة حول الفقه السياسي أو النظام السياسي، وقد أفرد لهذا الموضوع بعض الكتب مثل: "السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها" و"من فقه الدولة في الإسلام" و"غير المسلمين في المجتمع الإسلامي" وغيرها من الكتب.

وفي الفكر الحركي يعتبر الشيخ من أكبر منظري فكر الإخوان المسلمين وأكثرهم تأثيرا، فقد استطاع ملء الفراغ العلمي والفكري في الحركة، خاصة أن كتبه تجمع بين التأصيل والمنهجية وبين التنظير والتطبيق، وفي الاقتصاد الإسلامي صنف كتبا عديدة منها "فقه الزكاة" وهو من أهم كتبه وأظهرها اجتهادا وتأصيلا.

وقدم أيضا في تيسير الفقه وفي باب التراث والصحوة الإسلامية وغيرها إبداعات عديدة، وقد أثارت كثرة مؤلفاته التساؤلات لدى البعض والاستغراب لدى البعض الآخر، إذ كيف استطاع كتابة هذا الكم من الكتب مع كثرة المهام والانشغالات والدعوة التلفزيونية والعضوية في الكثير من اللجان والمؤسسات، إلا أن الشيخ كان حريصا على وقته وقد رزق البركة فيه، إضافة إلى موسوعية تحصيله فقد كان يختزن كما كبيرا من المعلومات والقراءات التي ساعدته على الكتابة دون مصادر أحيانا على مدار عمره الطويل.

تعقيب وخاتمة

صدر هذا الكتاب عام 2009 ومنذ ذلك الحين إلى اليوم وقعت أحداث جسام في البلاد العربية والإسلامية، تصدر الشيخ فيها الفتوى والرأي والتوجيه، وتعرضت فيها الحركة والفكر الإسلامي لهزات عنيفة أدت إلى تفككها في بعض البلدان ومحاولات الاستئصال لها في أخرى، كما أن الجماهير والنخب حدث بينها انقسام واستقطاب حاد، ولا شك أنه في هذه الأجواء قد تعرضت مرجعية الشيخ أيضا لرجات كبيرة، ومن أسباب ذلك بالإضافة إلى أحادية الصراعات وتصدر الشيخ فيها وشجاعته، كانت حملات التشويه التي قادتها بعض الأنظمة ضده.

ولا شك أيضا أنه بعد هذه الأحداث وبعد مرور الزمن، هناك حاجة إلى قراءات جديدة لما قدمه الشيخ، خاصة في مجالات الفكر والحركة الإسلامية والفقه السياسي، بالإضافة إليها واستكمال ما بدأه، أو بمراجعة بعضها الآخر، وأيضا تدعو هذه الأحداث إلى العودة إلي إنتاج الشيخ من أجل الاستفادة منه وتفعيل ما تجاهلته الحركة الإسلامية.

مراجعة كتاب:
أولويات الحركة الإسلامية
للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي

مراجعة كتاب:
أولويات الحركة الإسلامية للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي

أحمد أمين

باحث في العلوم السياسية

يهدف هذا الكتاب وفق محرره الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي -رحمه اللَّه- إلى وضع أولويات يجب على الحركة الإسلامية اتباعها حتى تحقق أهدافها، وتصبح قوة فاعلة في المجتمع الذي تعيش فيه أو الإقليم الذي تتبعه، وحاول الشيخ رسم هذه الأولويات لتكون شعاعا ونورا يضئ الطريق إلى المستقبل، ويعين الأفراد على فهم الماضي والحاضر، وبدون هذه الأولويات ستتأخر الحركة الإسلامية، وتتقوقع، وتنعزل عن العالم الذي تعيش فيه، وفي عام 1990 انتهي من كتابة هذا الكتاب، فكان رحمه اللَّه سابقاً عصره وزمانه حيث نادى بأفكاره أفراد الحركة الإسلامية بعد ثلاثة عقود من كتابته.

الإسلام ودوره في قيادة الحياة

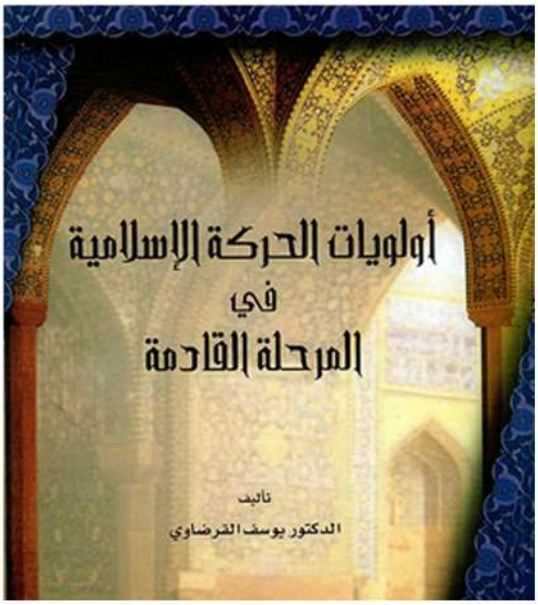

يبدأ الكتاب برسم أولويات للحركة الإسلامية موضحا الفارق بين الصحوة والحركة، حيث الصحوة هي تيار عام دافق يشمل الجماعات المنظمة والغير منظمة، أما الحركة فهي جماعة منظمة ذات أهداف محددة، وهي عمل شعبي يقوم على الابتعاث والاقتناع الشخصي أملاً في إرضاء الله، وابتغاء مرضاته، كما يفرق بينها وبين العمل الرسمي حيث يقوم العمل الرسمي وفقًا لنية القائمين عليه وولائهم لدينهم قبل دنياهم.

ويؤصل الكاتب لكون الدين يدعو إلى العمل الجماعي المنظم، ويكره الشذوذ، لأن العمل الفردي لا يكفي لسد الثغرات، وتحقيق الأمل المرتجى للأمة، كما يؤكد أن العمل في جماعة كالصلاة، إذا أخطأ الإمام وجب على المأمومين أن يصححوا له خطأه، وهذا ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين القيادة والجندية فلا إمامة معصومة، ولا طاعة عمياء.

يؤكد القرضاوي أن مهمة الحركة الإسلامية هي تجديد الإسلام، والعودة به إلى قيادة الحياة من خلال تكوين طليعة إسلامية متخصصة محترفة قادرة على قيادة المجتمع المعاصر بالإسلام دون تقوقع أو تحلل، وكذلك تكوين رأي عام إسلامي، وتهيئة مناخ عام عالمي يتقبل وجود الأمة الإسلامية بجوار القوى العالمية الأخرى، وأن من حق المسلمين أن يحكموا وفق عقيدتهم كما تنادي بها ديمقراطيتهم المزعومة.

كما بين الشيخ أن مجالات العمل كثيرة، ويجب توزيع القدرات والطاقات على المجالات وفق ما عندهم من ملكات وقدرات يمتلكونها، وأن يركزوا على تطوير الأفكار والممارسات فيما يتصل بالعلاقات السياسية ليخرجوا من التقوقع الداخلي، والحصار الخارجي.

يذهب الكتاب إلى أن المجال الأول للحركة الإسلامية هو المجال الفكري، لأنه الأساس للبناء الدعوي والتربوي، فبدونه يصبح هناك خلل واضح في الفهم، وقصور في الوعي، وعجز في المعرفة، وجهل بالواقع والآخرين، بل يصل الجهل إلى عدم معرفة الأفراد مواطن قوتهم وضعفهم، مؤكدًا على حاجتنا إلى

فقه جديد مغاير لفقه العبادات والمعاملات، هو معرفة بصيرة بسنن الله في الآفاق، وسنن الله في خلقه، وتفقه في سنن الله في النصر والهزيمة، ومداولة الأيام بين الناس، بل ويبين احتياجنا إلى فقه الموازنات بين المصالح وبعضها، وبين المفاسد وبعضها، وبين المصالح والمفاسد من حيث عمقها وتأثيرها وأيهما يقدم وأيهما يلغي، ومتى نقدم درء المفسدة على جلب المصلحة، وبقدر حاجتنا إلى فقه الشرع فنحن بحاجة إلى فقه الواقع المبني على دراسة مستفيضة دقيقة معتمدًا على معلومات صحيحة، وبيانات وإحصاءات وليس على ادعاءات أو بيانات منقوصة أو معلومات مغلوطة، بالإضافة إلى تغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، والمصالح الدائمة على المصالح المؤقتة، والمصالح المستقبلية على المصالح الحالية، ويعوض صاحب المصلحة الخاصة عما نزل به من ضرر، مؤكدًا على أهمية الممارسة العملية.

ويركز الكاتب على أن تقرير المبدأ إن كان سهل في ظاهره، فهو صعب في تطبيقه، لأنه فقه يصعب على العوام إدراكه فيسهل التشويش به لأدنى سبب، ففي ضوء فقه الموازنات نستطيع المقارنة بين وضع ووضع، والمفاضلة بين حال وحال، وبين المكسب والخسارة سواء على المستوى القصير أو الطويل، وعلى مستوى الأفراد أو الجماعات.

ويختتم الشيخ بفقه الأولويات الذي لا يؤخر ما يقدم، ولا يقدم ما يؤخر، ولا يكبر ما يصغر، ولا يصغر ما يكبر، حيث يضع كلا في مكانه، معتبرا أن آفة الصحوة الإسلامية هي غياب فقه الأولويات، فنجد اهتماما بالفروع قبل الأصول، والجزئيات قبل الكليات، وبالمختلف عليه قبل المتفق عليه، فمن الواجب أن نعطي للقضايا ذات الأولوية الجهد والوقت بدل التركيز على سفاسف الأمور، وأن تكاتفنا أولي من تناحرنا.

الحركة الإسلامية وحاجتها لقيادة عصرية

يسرد الكاتب أنه لابد للحركة الإسلامية أن تتحرك تحركا حثيثا لتصل الدعوة إلى كل طبقات المجتمع وشرائحه، وذلك لن يكون إلا عن طريق عمل دعوي إعلامي مخطط ومنظم، يستفيد من الوسائل والإمكانات الحديثة ليخدم بها دعوته، ويحقق بها هدفه، كما لابد للحركة من الاستعانة بالمتخصصين، والاستفادة من علماء النفس، والاجتماع، والسياسية، والإعلام، كل في مجاله، بالإضافة إلى إعداد إعلاميين، ودعاة معاصرين يسخّرون كل الإمكانات المتاحة لوصول الدعوة إلى كل العالم، فاتحا أذهان الحركة إلى أن أول الشرائح التي يجب العمل عليها هي النخب المثقفة بأن تؤثر فيهم تأثيرا بينا لأنهم القادة لغيرهم، ويكون الطريق إليهم علاجي بتصحيح الأفهام، وإقناعهم بالأدلة العلمية الموضوعية الهادئة، ووقائي عن طريق نشر ثقافة صحيحة عن الإسلام تجمع بين الدقة العلمية والوضوح البياني.

كما تهتم الحركة بالنخب عليها أن تهتم بالجماهير العريضة فتكون معبرة عن ضمير الأمة تتفاعل مع نبضها وتتعايش معه، لا استعلاء عليها أو يأس منها أو تهويناً من شأنها، كما لا تنشغل عن همومها

ولا تتقوقع على نفسها فتكون بمعزل عن الآخرين، كما يجب علي أفرادها أن يصارحوا الأمة بأمراضها، ولا يخدرونها بالأحلام الوردية دون أن يسلكوا الطريق لتحقيقه.

ويضيف أن من الشرائح التي لابد للحركة الإسلامية أن تؤثر فيها هم رجال المال والأعمال والتجار، فهم بشر يتأثرون ويؤثرون، وكان لرجال الأعمال في فجر الدعوة أثر عظيم، أمثال سيدنا أبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف، في تجييش الجيوش، وحمل الدعوة، ومساعدة المحتاجين، وبإجماع الخبراء والمخلصين أن إنفاق المال في بناء الإنسان والرجال الذين تقوم عليهم النهضات، وبهم تنتصر الرسالات وبهم تنهض المؤسسات من أولي الأولويات، ومن أوجب الأعمال التي تقرب إلى الله وتخدم الإسلام.

كما يتناول الكتاب العمل النسوي، مؤكدا أنه لن ينجح ويثبت وجوده إلا بعد بروز المواهب والقدرات والطاقات النسائية لتقود العمل بمعزل عن الرجال، ويكون لديهن قيادات وزعامات نسائية في ميادين الدعوة، والأدب، والتربية، والعلم، فلابد من إعطائهن الفرصة ليفرز العمل منهن مواهب وقيادات ورموز تستطيع أن تغير الواقع وتتأهل للمستقبل.

وينوه الشيخ إلى أن تكوين الطليعة المسلمة المرجوة وإثقالها فكريا وتربويا وعلميا من أهم الأولويات التي يجب على الحركة أن تسلكها، فتعمل على تكوين الشخصية الربانية التي تؤثر الخالق على الخلق، وتؤثر الدين على باعث الهوى، وتؤثر الآخرة على الدنيا، حتى لا نتحول إلى غثاء كغثاء السيل، كما لا يكفي للحركة أن تربي الطلائع فقط بل لابد لهذه السفينة من ربان وقيادة تقودها إلى

> **يؤكد القرضاوي أن مهمة الحركة الإسلامية هي تجديد الإسلام، والعودة به إلى قيادة الحياة من خلال تكوين طليعة إسلامية متخصصة محترفة قادرة على قيادة المجتمع المعاصر بالإسلام دون تقوقع أو تحلل، وكذلك تكوين رأي عام إسلامي، وتهيئة مناخ عام عالمي يتقبل وجود الأمة الإسلامية بجوار القوى العالمية الأخرى.**

الطريق الصحيح وسط الأمواج والأعاصير، لذلك يجب التركيز على إعداد القيادات للمستقبل، كما يوضح الشيخ أنه لا يعني القيادة التي تكون على قمة الهرم الإداري بل هي المجموعات التي تخطط، وتوجه، وتفجر الطاقات، ومهمومة بالبناء عن الهدم، وبالعمل عن الجدل، ويجب ألا تقف القيادات التاريخية عقبة كؤود أمام الدماء الجديدة، وألا تعتبر أن القيادة أمرا مؤبدا لا يخرج منها من دخلها، فتحول دون الاستفادة بالمواهب الشابة والقدرات الكامنة والصاعدة الذين يتجاوبون مع عصرهم وزمانهم ويحسنون التعامل معه، فلابد لها من إعداد القيادات المنشودة حتى يتولى زمام الأمور كل حفيظ عليم قوي أمين، مقترحا إنشاء معهد يضم مجموعة من النابغين المخلصين يكون مخصصا لإعداد القيادات، ويجب أن تكون المناهج التي تُدرس فيه تتصف بالشمول والعمق والتنوع وتجمع بين العلوم الدينية والإنسانية تتعاطى مع النظريات والتطبيق والأفكار، ويكون على أيدي متخصصين محترفين لا هواة حتى يخرج جيل من الطليعة المؤمنة يكون قائدا لزمانه ومكانه.

خصائص الفكر العلمي للحركة المنشودة

يؤكد الشيخ أن الطليعة المؤمنة بقدر ما هي بحاجة إلى التربية الإيمانية والبناء الأخلاقي فهي بحاجة إلى أن تعتني بالبناء الفكر العقلي الذي ينشئ العقلية العلمية التي تتعبد بالفكر، وتؤمن بالبرهان، وترفض الخرافة، وتبتكر وتبدع لتسود الروح العلمية كل شؤون حياتنا، ويكون قراراتنا الاستراتيجية والتكتيكية في التعليم والاقتصاد والسياسة يحكمها العقلية العلمية بعيدا عن الارتجالية والذاتية والتبريرية والانفعالية والعاطفية والتحكمية، ليسود مناخ يحترم النقد الذاتي للحركة ويدعمه، كما لابد لهذه العقلية العملية من سمات من أهمها النظرة الموضوعية، واحترام التخصص الدقيق، بالإضافة إلى القدرة على نقد الذات والاعتراف بالخطأ والاستفادة منه، وتقييم تجارب الماضي تقويما دقيقا عادلا بنظرة فاحصة بعيدا عن النظر إلى الماضي على أنه مناقب وأمجاد، كما لابد لها أيضا أن تبحث عن أحدث الأساليب وأعظمها، والاستفادة من تجارب الآخرين حتى من الخصوم، كما لابد لهذه العقلية أن تخضع كل شيء -عدا المسلمات الدينية والعقلية- للفحص والاختبار والرضا بالنتائج، كما عليها ألا تتعجل في إصدار الأحكام والقرارات إلا بعد دراسة متأنية مبنية على الإحصاء والاستقراء، بالإضافة إلى احترام وتقدير وجهات النظر الأخرى واحترام مخالفيه.

ويستفيض الكاتب في خصائص الفكر العلمي الذي يجب أن يكون داخل الحركة، مؤكدا أنه يجب أن يكون فكرا قائما على الواقع لا الخيال والأحلام، وأن يوازن بين الطموح والإمكانات، فلا يورطون أنفسهم في أمور لم يعدوا لها العدة مسبقا، أو لم يهيئوا لها الوسائل اللازمة، كما لهذا الفكر الجديد ألا يفتح مشكلات تاريخية شغلت الفكر الإسلامي في وقت من الأوقات كخلق القرآن والمبالغة حول التأويل وعدمه، بل لابد من تبني فكر يهتم بالبناء والعمل،

ويستفيض الكاتب في خصائص الفكر العلمي الذي يجب أن يكون داخل الحركة، مؤكدا أنه يجب أن يكون فكرا قائما على الواقع لا الخيال والأحلام، وأن يوازن بين الطموح والإمكانات، فلا يورطون أنفسهم في أمور لم يعدوا لها العدة مسبقا، أو لم يهيئوا لها الوسائل اللازمة، كما لهذا الفكر الجديد ألا يفتح مشكلات تاريخية شغلت الفكر الإسلامي في وقت من الأوقات كخلق القرآن والمبالغة حول التأويل وعدمه، بل لابد من تبني فكر يهتم بالبناء والعمل، فكر يفهم الفروع والجزئيات في ضوء الأصول والكليات، فكر يدعو إلى التجديد والاجتهاد وذم الجمود والتقليد والتبعية، وهذا لا يعني إلغاء القديم بل تطويره وتحسينه وتحديثه والإضافة إليه والاستفادة من إمكانات العصر، فكر يدعو إلى الاتباع في أمور الدين، والإبداع والاختراع في أمور الدنيا، فكر يفهم قاعدة "نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه".

عالمية الدعوة ومستقبلها

يستعرض الشيخ الراحل الظواهر الفكرية المتواجدة في محيط الحركة الإسلامية وخاصة في المجال السياسي، ومن هذه الأفكار "فكر المحنة" الذي سيطر على كثير من الإنتاج الدعوي والتربوي وأيضا التوجه السياسي، ولابد للحركة أن تتجاوزه، وأيضا "الفكر الظاهري" الذي يقف عند حرفية النصوص ولا ينفذ إلى مقاصد الشرع ولا يهتم بمصالح الخلق وهذا لا يمكن قبوله في مجال السياسة الشرعية، كما عليهم أن يبتعدوا عن "الفكر الخارجي" الذي يتسم

> **كما تهتم الحركة بالنخب عليها أن تهتم بالجماهير العريضة فتكون معبرة عن ضمير الأمة تتفاعل مع نبضها وتتعايش معه، لا استعلاء عليها أو يأس منها أو تهويناً من شأنها، كما لا تنشغل عن همومها ولا تتقوقع على نفسها فتكون بمعزل عن الآخرين، كما يجب على أفرادها أن يصارحوا الأمة بأمراضها، ولا يخدرونها بالأحلام الوردية دون أن يسلكوا الطريق لتحقيقه.**

أصحابه بمحدودية الأفق وضيق النظرة إلى الدين والحياة، وأيضا "الفكر التقليدي" الذي يبحث عن حل كل معضلة فكرية أو سياسية في كتب السابقين من علماء مذهبه لا يخرج عنها ولا ينظر إلى العصر وتياراته ومشكلاته وهم بذلك يضيقون ما وسع الله ويعسرون ما يسر الدين، ولن تقوم للحركة الإسلامية قائمة إلا إذا تجاوزت هذه الظواهر الفكرية السلبية بالتركيز على الفقه الجديد من فقه السنن، والمقاصد، والموازنات، والأولويات.

كما يسلط الضوء على قضية فلسطين ووجوب العمل على تجميع المسلمين وراء هذه القضية العادلة كما جندت الحركة الصهيونية يهود العالم وراء قضيتها،

بالإضافة إلى ذلك لا يكن هم الحركة في قضايا التحرر مقصورا على أوطان الإسلام، بل أن تقف مساندة ومعضده لكل قضايا التحرر من الاضطهاد والظلم والاستعباد في جميع أنحاء العالم، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، فدعوة الإسلام جاءت لتحرر الإنسان من العبودية لكل طاغوت.

ثم ينتقل الكاتب إلى الشكوى الدائمة من هجرة العقول العربية بما في ذلك النوابغ في مختلف التخصصات الحيوية والهامة، وكان يجب ألا تترك هذه العقول لتفقد ولاءها لدينها وأمتها، لذلك وجب على الحركة الإسلامية ألا تدعهم يغرقون في دوامة التيار المادي النفعي السائد في الغرب، بل تذكيرهم الدائم بأصلهم الذي يحنون دائما إليه، كما لابد للحركة ألا تنحصر في خطابها لنفسها، بل توسع أفقها لتخاطب غيرها، فتوجه خطابها للمخالفين لها في الفكر والاتجاه، وأن تخرج من القوقعة والانغلاق على الذات، وتجعل من الحوار العلمي الهادف ما يجعل المتردد يقتنع والخائف يطمئن والمتوتر يهدأ والحاقد يقلل من عداوته وحقده.

ويختتم الدكتور القرضاوي الكتاب بأنه من الواجب على الحركة الإسلامية على المستوى الإقليمي والعالمي أن يكون لديها رؤية واضحة للمستقبل ينبثق عنها خطة واضحة المعالم محددة الخطوات متطورة المناهج مرتبة المراحل علمية التفكير واقعية النظر موزعة الأعباء على المؤسسات المتخصصة الغير المعتمدة على أشخاص بعينهم تستمر ببقائهم وتتوقف بتوقفهم، ولابد لهذه الخطة أن تكون مبنية على معلومات موثقة وإحصاءات دقيقة وبحوث مستفيضة وتحليلات علمية ودراسة لكل العوائق المادية والمعنوية، ويقوم على هذه الخطة جهاز متخصص متكامل من خبراء متمكنين متنوع الثقافة، ولكي تتحقق هذه الخطة لابد لها من ثلاثة أمور: ضرورة تفرغ الكفايات للعمل خاصة في المواقع الاستراتيجية العامة في مجال العلم والفكر ومجال السياسة والتخطيط ومجال الدعوة والإعلام، ولا يجوز أن تظل معتمدة على متطوعين محتسبين ببعض جهودهم وأوقاتهم، والأمر الثاني ضرورة التوجه لإعداد متخصصين فنحن في عصر التخصص الدقيق لا العباقرة الموسوعيين، وأخيرا؛ أصبح من الضروري على الحركة الإسلامية أن تنشئ بنكا للمعلومات ومراكز أبحاث ودراسات مبنية على خبراء متخصصين مدربين، وتخدمه أجهزة متطورة تلائم العصر، فيجب على الحركة الإسلامية على المستوى المحلي والعالمي أن تعيش عصرها وتطور من نفسها وتجند كل طاقتها وطاقات المسلمين من حولها لرفعة الإسلام وعزته.

سُبل

subulmagazine.com
subul.magazine@gmail.com
facebook: subul.magazine